الجمهورية الجزائرية الشعبية الديموقراطية
وزارة التعليـــم العالــي والبحث العلمي
جامعـــة وهـــــــــران – السانيـــــــة
كليـــــــة الآداب و اللغــــــــات والفنون
قســم اللغـة العربيـــــــة وآدابـــــها

الموضوع

تشبيه التمثيل وأثره في بلاغة الكلام في الموروث العربي

- عبد القاهر الجرجاني نموذجا -

مذكرة مقدمة لنيل درجة الماجستير في إطار مشروع

البلاغة العربية بين التطور والتجديد

إعداد الطالب

مختاري يحيى

تحت إشراف

أ.د / قدور إبراهيم عمار

لجنة المناقشة

أ.د. إسطنبول ناصـــر	رئيســـا		جـــــامعة وهـــران
أ.د. قدور إبراهيم عمـــار	مشرفا ومقررا		جـــــامعة وهـــران
أ.د. محمد بن سعيـــــد	مناقشـــا		جـــــامعة وهـــران
أ.د.مختاري خالـــــد	مناقشـــا		جـــــامعة وهـــران

2012 / 2011

الإهداء

إلى الوالدين الكريمين – حفظهما الله، ورحمهما كما ربّياني صغيرا...وإلى معلّمي النّاسِ الخيرَ...وإلى كل غيورٍ على القرآن ولغة القرآن، حريصٍ عليهما، مُنافحٍ عنهما.... إلى أولئك جميعا.....
أُهدي هذا العمل المتواضع

كلمة شكر

بعد شكر الله – سبحانه - الذي هو صاحب الفضل على العالمـــين.... أتقدّم بالشكر الجزيل للأستاذ الجليـل والوالد الكريم ، صاحب الفضل علينا – بعد الله – في إنجاز هذا العـمل، الأستاذ الدكتــور: قدور إبراهيم عمّار- حفظه الله ومتّعه بالصحّة والعافية -آمين......ثمّ الشكر موصول لكلّ من أعان- ولو بكلـمة طيِّبة...ونِعِمَّا هي.

مقدمة

الحمد لله الرحيم الرحمن، الذي علم القرآن، وخلق الإنسان، وعلّمه البيان... سبحانه العليم الخبير ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[1] والصلاة والسلام على البشير النذير، الذي ليس له في الفصاحة - من الورى – نظير ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾[2]...، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين... أما بعد:

فإن التشبيه من أبلغ أسليب البيان و فنونه، وأحسن طرق التصوير، وأشدها تأثيرا، وأبلغها أثرا في النفوس... ولأمر ما شغفت به العرب، وأكثرت منه في كلامها منثوره ومنظومه، وعدته من محاسنه وكمالاته... ذلك لأنها وجدت فيه وسيلة إلى حسن الإيضاح والبيان، والتأثير في النفوس والعقول، والتقريب بين الأشياء المتباعدة، والتأليف بين الأشياء المتنافرة... بأخصر عبارة وأوجز إشارة. ومن اطلع على كلام العرب، وتأمل التشبيهات المأثورة عنها، وقف على الكثير من محاسنه، وأدرك سبب حسنه ورفعة شأنه...

وأما تشبيهات القرآن فهي آية في البلاغة والجمال، يعجز عن الإتيان بمثلها الأنام، وتقصر عن الإحاطة بأسرارها الأفهام... وتأتي بعدها - في البلاغة والحسن- تشبيهات السنة النبوية، ثم تلك المأثورة عن بلغاء العرب من خطباء و شعراء وكتاب...

هذا وإن الناظر في كلام العرب، وما أثر عنهم من تشبيهات، ليدرك أنها ليست في درجة واحدة من البلاغة وقوة التصوير و التأثير... فبعضها أبلغ من بعض، وأقوى و أشد تأثيرا في نفوس السامعين.

---

[1] سورة الشورى، الآية 11.

[2] سورة النجم، الآية 3 -4.

وقد نصّ كثير من علماء البلاغة على أن التشبيه كلما كان خفيا بعيدا عن الأذهان، يحتاج في استخراجه إلى تدقيق نظر، و طول تأمل، وإعمال فكر... كان أبلغ و أشد تأثيرا في النفس. و" تشبيه التمثيل " قد حاز من تلك الصفات النصيب الأوفر، فكان أبلغ من غيره...

وقد شغفت بهذا الفن البديع من فنون التشبيه لما تقدم ذكره، فكان ذلك داعيا إلى اختياره ليكون موضوع البحث، ولأسباب أخرى: أهمّها الشعور بالحاجة إلى بسط القول أكثر في هذا الفنّ؛ ليمسّ جوانب أغفلها من بحثوا فيه-على قلّة تلك البحوث، أو أشاروا إليها إشارات هي عبارة عن أحكام عامة تفتقر إلى إقامة الدليل...

وقد قوّى ذلك الداعيَ في نفسي أنني لما أطلعت أستاذنا الكريم الأستاذ الدكتور قدور عمّار إبراهيم على اختياري، شجعني و صوب ذلك الاختيار، وأرشدني ناصحا إلى أن أربط دراستي له بالموروث العربي، وأن أختار نموذجا لتلك الدراسة علما من أعلام البلاغة العربية، ممّن وفّوا ذلك الفنّ حقّه، فصادف ذلك هوى في الفؤاد، وكان العلم المختار- بلا تردّد -شيخ البلاغة العربية ومحقّق علومها : أبا بكر عبد القاهر بن عبد الرحمان بن محمد الجرجاني (ت: 471 هـ)... فكان عنوان البحث كالتالي:

تشبيه التّمثيل وأثره في بلاغة الكلام في الموروث العربيّ

– عبد القاهر الجرجانيّ نموذجاً –

وتهدف هذه الدراسة إلى أمور، أهمها :

- أولا: تحقيق القول في ذلك الفن البديع، وذلك ببيان حقيقته و معناه، و أثره في بلاغة الكلام وأداء المعنى.

- ثانيا: الوقوف على أوليته في الموروث العربي، كيف نشأ، ثم كيف نما وتطور، و معرفة الأعلام الذين كان لهم أثر في نموه و ازدهاره، والكشف عن أسراره...

- ثالثا : بيان جهود عبد القاهر الجرجاني الخاصة في تحديد معالم ذلك الفن، ورفع قواعده، ومقدار تلك الجهود ومدى تأثره– في دراسته– بالسابقين، و تأثيره في اللاحقين...

ولا شكّ أن تحقيق هذه الأهداف يتطلّب منّا اتباع منهج تاريخي، وآخر وصفي تحليلي _ فالأول يفيدنا في الوقوف على أوّلية فنّ تشبيه التمثيل، وتتبّع مراحل نشأته وتطوره... والثاني يساعدنا في وصف ذلك الفنّ، وبيان حقيقته ومعناه، وتحليل شواهده...

وأمّا فيما يخصّ الخطة المتبعة في تقسيم البحث، فقد وضعت على نحو يحقّق الأهداف المرجوّة، والتي سبق ذكرها - فقسّمنا البحث إلى مقدّمة، ومدخل، وثلاثة فصول، وخاتمة... كالتالي:

- **المقدّمة :**

- **المدخل :** وقد تناولنا فيه الحديث – بإيجاز- عن بعض المسائل التي لها علاقة بالفنّ المدروس– فعرضنا للصورة البيانية، وما يرتبط بها من عناصر كالخيال والتخييل، ولعلاقتها بالنظم، كما عرضنا للتشبيه ومنزلته وفوائده، وأنه درجات في الحسن والبلاغة وقوّة التصوير والتأثير؛ لنخلص إلى بيان فضيلة "التمثيل ".

- **الفصل الأول :** تحدثنا فيه عن " تشبيه التمثيل " عند السابقين حتى عصر عبد القاهر الجرجاني، ونعني بهم الأعلام الذين سبقوه، والذين عاصروه وتوفّوا قبله، مع التركيز على من وردت عندهم كلمة "تمثيل " ؛ لنقف على دلالاتها عندهم .

- **الفصل الثاني :** وكان القصد من وراء عقده تجلية حقيقة "تشبيه التمثيل "، وبيان معناه، وقد اضطرّنا ذلك إلى بيان اختلاف مذاهب علماء البلاغة في "التمثيل "، مع التركيز على بيان آراء ثلاثة منهم دوّت شهرتهم في الآفاق، وصاروا الأئمة المتبوعين الذين لا يصدر العلماء –في البلاغة- إلا عن آرائهم...

ونعني بهم : عبد القاهر الجرجاني، وأبو يعقوب السكاّكي، والخطيب القزوينيّ . . كما قصدنا إلى إبراز أثر تشبيه التمثيل في بلاغة الكلام وأداء المعنى، والكشف عن أهمّ أسراره... ولأن المقال يتّضح بالمثال؛ فقد عرضنا- بالتحليل- لبعض أمثلته ونماذجه من الكلام البليغ : من القرآن الكريم، والحديث الشريف، وأشعار العرب.

- **الفصل الثالث :** وقد خصّصناه للحديث عن آراء عبد القاهر الجرجاني الخاصّة في "تشبيه التمثيل "، وبيان جهوده في رفع دعائمه وتحديد معالمه، وإبراز أثره في المعاني والنفوس، وكذا بيان مدى تأثّره – في دراسته – بالسابقين، وتأثيره في اللاّحقين .

- **الخاتمة :** وقد عرضنا فيها أهم نتائج البحث المستخلصة .

ولعلّ من محاسن هذه الخطّة؛ أنّها تستوعب – تقريبا- جميع جوانب القول في فنّ تشبيه التمثيل، وتعطي القارئ تصوّرا شاملا عن الموضوع...

وبعد... فهذا جُهد المقلّ نقدّمه لإخواننا القرّاء، إن كنا قد أحسنّا فيه ووفّقنا للصواب – فذلك ما نرجوه، وإلا... فحسبنا أنّنا قد بذلنا ما في وسعنا، والنقص ملازم لعامة البشر، وقد أبى الله الكمال إلا لكتابه.

الجمعة 17 جمادى الآخرة 1432هـ الموافق لـ20ماي 2011

يحي مختاري

مدخل

لقد عرّف علماء البلاغة المتأخرون البيان بأنه: «علم يعرف به كيفية أداء المعنى بطرق وأساليب مختلفة؛ بعضها أوضح في الدلالة من بعض... فالمعنى الواحد يستطاع أداؤه بطريق من طرق التشبيه أو الاستعارة أو المجاز أو الكناية....

"وقد اتجه الدارسون المحدثون إلى استخدام مصطلح الصورة المجازية أو الصورة البيانية بدلا من علم البيان... وتقوم الصورة البيانية على استحداث علاقة بين الدلالة الوضعية، كدلالة النهر على المجرى المائي، وبين صفة ما؛ كدلالة النهر على الكرم؛ التي هي دلالة مجازية؛ لأنها تتجاوز ما تواضع عليه أهل اللغة للنهر. فهم قد افترضوا في النهر صفة إنسانية هي صفة الكرم، حيث رأوا أنفسهم يأخذون منه الماء الذي هو مصدر للحياة، وحمّلوه صفتهم، وافترضوا له بعض خصائصهم... فالصورة تمثل إعادة صياغة، أو تشكيل خيالي للواقع بما تضيفه أو تستحدثه من علاقات وإشارات ورموز.."[3]

وقد "لقيت الصورة البيانية احتفالا شديدا من جانب البلاغيين القدماء والمعاصرين، لما لها من تأثير حيويّ في جمال التعبير وتأثيره في نفس المتلقي من ناحية، وكثرة استخدامها في التراث الأدبيّ شعرا ونثرا من ناحية أخرى . ولهذا نجد البلاغيين منذ القرن الثالث الهجري ينتبهون إلى التعبير البياني في الأسلوب الأدبي فيرصدونه، ويدرسون مباحثه، ويؤصّلون قضاياه..." [4]

ويمكن تعريف الصورة البيانية بأنها : " تلك الظلال والألوان التي تخلعها الصياغة على الأفكار والمشاعر، وهي الطريق الذي يسلكه الشاعر والأديب لعرض أفكاره وأغراضه عرضا أدبيا مؤثرا، فيه طرافة ومتعة وإثارة " [5].

[3] حسني عبد الجليل يوسف: "التصوير البياني بين القدماء والمحدثين " / دار الافاق العربية / القاهرة /بدون تاريخ / ص8، 9.

[4] عبد الفتاح عثمان: "التشبيه والكناية " / مكتبة الشباب / مصر / 1993/ ص3

[5] صلاح الدين عبد التواب: " الصورة الأدبية في القرآن الكريم " / الشركة المصرية العالمية للنشر- لونجمان / مصر/ ط1: 1995 / ص 9، 10

ومعلوم أن مقياس الجودة الأدبية هو مدى تأثير الصورة البيانية في نفوس متذوّقيها، بما جمعت في إطارها من سموّ المعاني، وبلاغة الألفاظ، وروعة التناسق، ودقة النظم، وحسن إيقاع الكلام، إلى غير ذلك مما يبلغ تأثيره في النفوس كل مبلغ... [6]

وإذاً "فليست كل صورة جديرة بأن تمّي ذوقا أدبيا رفيعا، أو تعتبر فنا قوليّا أصيلا، وإنما- فقط- تلك الصورة الحية النابضة، والمتحركة الشاخصة التي تترك أثرها يتعمق المشاعر ويهز الوجدانيات. فإذا مضت تلك الصورة وانقضت، أو إذا أغمضت العيون دونها، فإنها تبقى حية ما ثلة بجملتها في الفكر والوجدان، ولا تزال تهيم بها النفوس، وتنفعل لها المشاعر والأحاسيس... ومما لاشك فيه؛ أن جمال التصوير وروعة البيان، وراء كل تأثير تحدثه الصورة الأدبية في النفوس "... [7]

وعند الحديث عن الصورة وتأثيرها، يبرز مصطلحان مهمان لهما ارتباط وثيق بالصورة البيانية، وهما الخيال والتخييل...

- فالخيال كعنصر من عناصر الصورة، هو تلك القوة النفسية التي يستطيع بها الأديب أن يعرض أدبه في صورة قوية مؤثرة، وذلك بتصوير حقيقة الشيء حتى يتوهّم أنه ذو صورة تشاهد... [8]

ودور الخيال في الأسلوب الأدبي أمر جوهري وحيوي، وقد أبان عن ذلك النقد الحديث، فلم تعد مهمة الخيال قاصرة على استعادة المدركات الحسية التي غابت عن مجال الإدراك المباشر وإنما تجاوزت مهمته هذه الناحية لتصل إلى القدرة الفاعلة النشيطة التي تتعامل مع الواقع بحرية فتتفاعل معه بالتجزئة والتركيب والحذف والإضافة، بل تخلقه خلقا جديدا كأننا نراه لأول وهلة. [9]

فالأديب ينظر بعين الخيال نظرة خاصّة متفرّدة، يرى بها الناس والأشياء رؤية مميّزة، تتيح له الكشف عن العلاقات المتشابكة، والروابط الخفية، والمعاني القائمة، فيقدمها لنا لينتزع من نفوسنا

---

[6] المرجع نفسه، ص36.

[7] صلاح الدين عبد التواب: " الصورة الأدبية في القرآن الكريم "، ص 10، 11

[8] المرجع نفسه، ص 25

[9] عبد الفتاح عثمان: "التشبيه والكناية "، ص 7

الدهشة، وليزيح عن عيوننا الغشاوة، وليرينا مواطن الجمال التي نبصرها ولا نتبصّرها، ونمر بها ولا ننفعل لها . [10]

والخيال يرتبط بالصورة لأنها في الواقع أداته الطيّعة التي يمارس من خلالها فاعليته ونشاطه، ويعقد صلات بين المدركات العقلية والمدركات الحسية... [11]

- وأما التخييل فيراد به التقديم الحسي للصور الذهنية الموجودة في مخيلة الشاعر، والتي تثير بدورها أو تستدعي صورا مشابهة إلى ذهن المتلقي فينفعل لها... [12]

ونلاحظ في هذا المجال أن مصطلح التخييل قد تحدّد، وأصبح يعني الأنواع البلاغية التي ترتكز عليها الصورة الفنية، وهي التشبيه والاستعارة والمجاز، كما أنه دخل عنصرا جوهريا في الشعر، ولم يعد مجرد إيهام ليس له نصيب من الحقيقة . [13]

وبهذا يكون التخييل مرتبطا بالأنواع البلاغية، ومميّزا للأسلوب الأدبي عن الأساليب الخطابية والبرهانية والجدلية . [14]

وعليه فإن موضوع علم البيان هو :" الصور الخيالية المبتدعة في صياغة المعنى للتعبير عنه، وفي هذه الصور تعقد صلة بين أمرين قد لا تكون بينهما في الواقع أية صلة، وهذه الصور تتمثل في خيال المنشئ مرتبطة بثقافته ورؤاه وتجاربه..."[15]

كما يبرز هنا عنصر أصيل له شأنه ودوره الكبير في الصورة البيانية، ألا وهو: "النّظم "... ويعدّ عبد القاهر الجرجاني من أبرز من تحدثوا عن "النظم "، وإليه يردّ أمر الإعجاز في القرآن، وقد ألف كتابة الجليل "دلائل الإعجاز " لبيان ذلك...

---

[10] عبد الفتاح عثمان: "التشبيه والكناية "، ص 7، 8
[11] المرجع نفسه، ص8.
[12] المرجع نفسه، ص12، 13.
[13] المرجع نفسه، ص13.
[14] المرجع نفسه، ص 14.
[15] محمد مصطفى هدارة: "علم البيان " / دار العلوم العربية / بيروت / لبنان / ط1: 1989 / ص5، 6.

ولما كان لعبد القاهر فضل في إبراز وتوثيق قضية النظم نسب إليه؛ لأنه أكملها وأحسن عرضها وتحقيقها وتحليلها وتعليلها واستقراء أمثلتها، وإزالة ما يعرض لها من شبهات، ومحاولة تطبيقها في ميدان الدراسة الخاصة. [16]

ويوضح عبد القاهر مفهوم النظم، ومدى ارتباطه بالنحو فيقول : " اعلم أن ليس "النظم " إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه "علم النحو "، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نُهِجتْ فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك، فلا تخلّ بشيء منها... " [17]

وعبد القاهر لا ينكر دور الخيال ولا العبارة الموسيقية، وتأثيرهما في الصورة البيانية، غير أنه يعتد بالعنصر الأصيل وهو النظم لأنه مهما تنوعت صور الخيال وتعددت وبرز ما فيها من جمال، ومهما تتابعت تلك العبارات الموسيقية بما فيها من روعة وجلال، فإن دقة النظم من وراء هذا كله، ولولا مراعاة النظم وروعته فيها لما جاءت هذه الصور على هذا النسق الجميل، ثم يأتي دور الخيال والعبارة الموسيقية بعد ذلك ليضفي كل منهما جمالا على الجمال. [18]

وعبد القاهر يقرر أن الاستعارة والكناية والتمثيل وسائر ضروب المجاز من مقتضيات النظم، وعنها يحدث، وبها يكون؛ لأنه لا يتصور أن يدخل شيء منها في الكلم وهي أفراد، فإذا قلنا في لفظ "اشتعل " من قوله تعالى: واشتعل الرأس شيبا [19]، إنها في أعلى المرتبة من الفصاحة لم توجد تلك الفصاحة لها وحدها، ولكن موصولا بها الرأس معرفا بالألف واللام، ومقرونا إليهما الشيب منكرا منصوبا، فليست الفصاحة صفة للفظ اشتعل وحده... [20]

---

[16] عبد العاطي غريب علام: "دراسات في البلاغة العربية "/منشورات جامعة قان يونس/ بنغازي/ ليبيا/ ط1: 1997/ ص 3

[17] المرجع نفسه، ص 10، وأبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمان الجرجاني: " دلائل الاعجاز " / تحقيق: محمود محمد شاكر / دار المدني- جدة / مطبعة المدني / القاهرة / ط3 : 1992 / ص81.

[18] صلاح الدين عبد التواب: "الصورة الأدبية في القرآن الكريم "، ص25.

[19] سورة مريم، الآية 4

[20] محمد عبد المنعم الخفاجي وآخرون: "الأسلوبية والبيان العربي " / الدار المصرية اللبنانية / القاهرة / ط1: 1992 / ص78. وعبد القاهر الجرجاني: "دلائل الإعجاز "، ص100 وما بعدها.

- والتشبيه من أبلغ أساليب التعبير البياني وفنونه، وأحسن أدوات التصوير وأشدها تأثيرا في النفوس... وقد شغفت به العرب قديما، وأكثرت منه في كلامها منثوره ومنظومه... كما ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية في كثرة لافتة، وحسنه فيهما ظاهر باهر...

وقد انتقل هذا الشغف بالتشبيه إلى البلاغيين؛ فاعتنوا به في مؤلفاتهم أشد الاعتناء وأشادوا ببلاغته... ، ومن ذلك أنهم أطلقوا " على بعض أنماط التشبيه ألقابا تعبر عن إعجابهم بها من حيث بناء التشبيه، أو من حيث المضمون؛ كالتشبيه البليغ؛ وهو التشبيه الذي يحذف فيه وجه الشبه وأداة التشبيه، لأنه يزيد الشبه قوة، فكأن المشبه هو المشبه به، ومن ذلك التشبيه البعيد، وهو الذي يحتاج إلى تفسير، وتشبيه التوكيد، والتشبيه الجيد، والحسن، والعجيب، والمحمود، والمستطرف، والمصيب، والتشبيهات العقم؛ أي تلك التشبيهات التي لا نظير لها... "[21]، وقد عدّ ابن المعتز من محاسن الكلام والشعر: " حسن التشبيه ".[22] وقال مؤلف نقد النثر: "... وأما التشبيه فهو من أشرف كلام العرب، وفيه تكون الفطنة والبراعة عندهم. وكلما كان المشبِّه منهم في تشبيهه ألطف؛ كان بالشعر أعرف، وكلما كان بالمعنى أسبق؛ كان بالحذف أليق....[23]

وقال صاحب الطراز: "اعلم أن التشبيه هو بحر البلاغة وأبو عذرتها، وسرها ولبابها، وإنسان مقلتها. "[24]

وقد حدّد اللغويّون معنى التشبيه بالتمثيل، ودارت مادّة "شبه " وما يشتق منها حول المثل والمماثلة والتمثيل... ففي لسان العرب لابن منظور نقرأ هذا التحليل اللغويّ : "الشِّبْهُ والشَّبَهُ والشَّبيهُ: المِثْلُ، والجمع أشْباه، وأشبه الشيءُ الشيءَ : ماثله، وفي المثل: من أشبهَ أباه فما ظلم... "[25]

---

[21] حسني عبد الجليل : "التصوير البياني بين القدماء والمحدثين "، ص24.

[22] عبد الله بن المعتز : "البديع " / تحقيق: عبد المنعم خفاجي / دار الجيل / بيروت / ط1: 1990 / ص152 و166.

[23] قدامة بن جعفر: " نقد النثر "/ نشر: طه حسين، وعبد الحميد العبادي / المكتبة العلمية / بيروت / 1980/ ص58 وسيأتي الكلام عمّا في نسبة الكتاب إلى قدامة.

[24] يحي بن حمزة العلوي : "الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز "/ تحقيق: عبد الحميد هنداوي / المكتبة العصرية / بيروت / ط1: 2002 / ج1 / ص167

ولا يخرج التشبيه في جذره اللغويّ عن هذا المعنى الوضعي الذي يراد به المثيل والنظير، وداخل هذا الإطار تنضمّ مشتقّات المادّة التشبيهية . وواضح أنّ التعريف اللغويّ عامّ لا يحدّد صفات المماثلة، ولا يتعرّض لطبيعة الصلة بين الشيء ومثيله... [26]

وأما في اصطلاح البلاغيين، فالتشبيه هو - الدلالة على مشاركة أمر لآخر في صفة أو أكثر... وهو " يقوم أساساً على طرفين أصليين هما : المشبّه والمشبّه به، وعلاقةٍ تربطهما تسمى وجه الشبه، وأداة تصل بينهما يطلق عليها أداة التشبيه. ومن خلال هذه المكونات الأربعة تتحرك عبقرية البليغ ليصوغ الصور التشبيهية، ويبين عن رؤيته الذاتية للأشياء، وإحساسه نحوها . وهو حين يعقد مقارنات ظاهرة لوجوه شبه تصل بينها، لا يتعسّف في إيجاد هذه الصلات، ولا يخلقها من العدم، كذلك لا ينقل عنها نقلا حرفيا لمجرد التشابه الأصمّ، وإنما يتدخل برصيده الشعوري وفطنته العقلية ليضفي عليها من ذاته، بحيث يكون التشبيه صورة من الذات والموضوع معاً "[27]

وللتشبيه فوائد ذكرها البلاغيون، أهمها ثلاث أشار إليها ابن الأثير؛ وهي: المبالغة- أو البلاغة-، والبيان- أو الإيضاح، والإيجاز- أو الاختصار-[28]

وقد ذكرها يحي بن حمزة العلوي- أيضا- في "الطراز "، وفصّل القول فيها مع التمثيل، وذلك من خلال ثلاثة مقاصد : [29]

- المقصد الأول: في إفادته للبلاغة، وهذا كقوله تعالى : ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴾[30]، فشبه السفن الجارية على ظهر البحر بالجبال، في كبرها وفخامة أمرها على جهة المبالغة في ذلك،

---

[25] عبد الفتاح عثمان : "التشبيه والكناية "، ص 25، وأبو الفضل جمال الدين ابن منظور الأفريقي المصري : "لسان العرب "/دار صادر/ بيروت /بدون تاريخ/ ج 13 /ص 503

[26] عبد الفتاح عثمان : "التشبيه والكناية "، ص 25

[27] المرجع نفسه، ص 37

[28] ضياء الدين بن الأثير : "المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر "/ تحقيق: محي الدين عبد الحميد / المكتبة العصرية / بيروت / 1999 / ج1 / 378

[29] العلوي: "الطراز... "، ج1 / ص142 الى 145، باختصار.

[30] سورة الرحمن، الآية 24.

وهكذا القول في جميع تصرفات التشبيه، فإنه لا ينفك عن إفادة البلاغة، وإلا لم يكن تشبيها، لأن إفادته للبلاغة هو مقصده الأعظم، وبابه الأوسع...

- المقصد الثاني: في إفادته للإيجاز؛ وهذا ظاهر، فإنك إذا قلت: زيد كالأسد، فإن الغرض تشبيهه بالأسد في شهامة النفس، وقوة البطش، وجراءة الإقدام، والقدرة على الافتراس... وغير ذلك من الصفات الفاخرة، فقد استغنيت بذكر لفظ الأسد عن أن تقول: زيد شهم شجاع قوي البطش جريء الجنان قادر على الاعتداء، فهذا هو الذي نريده بالإيجاز...

- المقصد الثالث : في إفادته للبيان والإيضاح ؛ فإنه يخرج المبهم إلى الإيضاح، والمتلبس إلى البيان، ويكسوه حلة الظهور بعد خفائه، والبروز بعد استتاره، وهذا كقوله تعالى- عن الكفار والمنافقين-: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾.[31]

ــ وكقول أبي نُوَاسٍ في ذم الدنيا وتقبيحها:[32]

إِذَا امْتَحنَ الدُّنْيا لَبيبٌ تَكَشَّفَتْ   لَه عَن عَدُوٍّ في ثِيابِ صَديقِ...

فهذه الفوائد الثلاث موجودة في كل تشبيه، غير أنّ هناك بعض الأنواع اختصّت بفوائد أخرى، وذلك لأن التشبيهات ليست في مستوى واحد من البلاغة والحسن والتأثير في النفس... فبعضها أبلغ من بعض، وأشدّ تأثيرا، وأقوى تصويرا وأبدع... وهذه حقيقة يدركها كل مطّلع على التشبيهات المأثورة عن العرب، فإنه يشعر بالروعة تأخذه عند بعضها دون البعض الآخر.

وقد نصّ كثير من علماء البلاغة على أن التشبيه كلما كان بعيدا خفيا، يحتاج في إدراكه واستخراجه إلى دقة نظر، وفضل تأمّل. .كان أبلغ، وأشدّ تأثيرا، يعمل في النفوس والعقول عمل السحر، فيأخذ بالألباب.

[31] سورة البقرة، الآية 17.

[32] أبو نواس: الديوان / دار الكتب العلمية/بيروت /ط1: 1987/ ص 394

ومن تأمّل شواهد التشبيه الذي أطلق عليه البلاغيون اسم "تشبيه التمثيل "، أدرك أن هذا النوع أبلغ وأشدّ تأثيرا من غيره، ذلك لأنه حاز من تلك الصفات أوفر نصيب...

وقد لقي هذا الفنّ البديع اهتماما بالغا من علماء البلاغة، وذلك لأنهم عرفوا منزلته وفضله، فاعتنوا به في مؤلّفاتهم، وأبانوا عن فضله، وجميل أثره في النفس، وقوة تأثيره فيها... وعلى رأس هؤلاء شيخ البلاغة العربية : عبد القاهر الجرجاني، والذي خصّه بدراسة مفصّلة معمقّة رائعة، تدلّ على قريحة فيّاضة، وذكاء حادّ، وبصر بأساليب العرب في كلامهم، وذوق أدبي عال...

ويكفي أن تقرأ له هذا الكلام الرائع - في كتابه "أسرار البلاغة "- عن تأثير التمثيل، وذلك حين يقول: " وهل تشكّ في أنه يعمل عمل السحر في تأليف المتباينين حتى يختصر لك بُعد ما بين المشرق والمغرب، ويجمع ما بين المشئم والمعرق. وهو يريك للمعاني الممثلة بالأوهام شبهاً في الأشخاص الماثلة، والأشباح القائمة، وينطق لك الأخرس، ويعطيك البيان من الأعجم، ويريك الحياة في الجماد، ويريك التئام عين الأضداد، فيأتيك بالحياة والموت مجموعين، والماء والنار مجتمعين..." [33]...

فكيف نشأ هذا الفنّ وتخلّق ؟ - ثمّ كيف نما وتطوّر؟ - ومن هم الأعلام الذين أسهموا في تطوّره ؟ - وما هي حقيقته ؟ - وما أثره في بلاغة الكلام وأداء المعنى ؟ - وما هي جهود عبد القاهر الجرجاني الخاصّة في رفع قواعده وتحديد معالمه ؟...

---

[33] عبد القاهر الجرجاني: "أسرار البلاغة "/ تحقيق: محمود شاكر / دار المدني-جدّة-/ مطبعة المدني –مصر/ ط2: 1989 / ص 132.

الفصـل الأوّل

تشبيه التمثيل عند السابقين

لاشكّ أن أي علم من العلـوم مهما كان موضـوعه ، لابـد أن يمرّ بمراحل من التطـور، منذ بداية نشأته إلى أن تكتمل أبوابه و مسائله و قضاياه. و القضـايا " لا ينتـظر أن تولد كام ـلة، وأي فنّ من الفنون إنما هو نتاج قرائح، يضاف بعضه إلى بعض، و يعمل بعضه في بعض، فالفضل و إن نسب إلى المتأخر، و الشرف و إن حازه من اكتمل عنده و صادف التمام لديه فإن المتقدم يقاسمه هذا الشرف حتى و إن أخطأ. وحسب السابقين أن عملهم و أجرهم عند الله الذي لا يضيع عنده مثقال ذرة "[34].

ومسائل البلاغة و فنونها، قد جرى عليها هذا القانون – قانون التطور-، وتتابع على تحقيقها و السير بها نحو الكمال أجلّة من علماء العربية المتقدمين. ومن هذه الفنون: فنّ التمثيل البلاغي أو تشبيه التمثيل ".

وسنعرض في هذا الفصل آراء طائفة من علماء البلاغة و العربية، ممن تناولوا في كتبهم هذا الفن البديع أو أشاروا إليه، متّبعين في العرض منهج التسلسل الزمني – حسب سنة وفاة كل واحد منهم-، وهذا المنهج سيمكننا من الوقوف على أوّلية هذا الفن، كيف تخلق ونشأ، ثم كيف نما و تطور... حتى ازدهر على يد الشيخ عبد القاهر الجرجاني – شيخ البلاغة العربية و محقق علومها، المتوفى في أواخر القرن الخامس الهجري (سنة 471)- بعد ذلك، و هو ما سنفصل فيه الكلام لاحقا في غير هذا الفصل. كما سيمكننا من معرفة الأعلام الذين تأثّرهم عبد القاهر في عمله حين عمد إلى وضع نظرية تشبيه التمثيل – إن كان قد تأثر...

[34] محمد جلال الذهبي : "سمات البلاغة عند الشيخ عبد القاهر " / مطبعة الأمانة/ مصر/ط2/ بدون تاريخ/ ص89

أبو عبيـدة

هو أبو عبيدة معمر بن المثنى (ت: 211هـ)، صاحب الكتاب المشهور "مجاز القرآن ". و قبل الشروع في المقصود، ينبغي التنبيه على أمر مهم، و هو أنه لا خلاف بين الباحثين في أن أبا عبيدة هو أول من أطلق كلمة مجاز " في كتابه... غير أنه لم يقصد بلفظ " المجاز " معناه الاصطلاحي المعروف. قال ابن تيمية: " و أول من عرف أنه تكلم بلفظ المجاز: أبو عبيدة معمر بن المثنى في كتابه، و لكن لم يعن بالمجاز ما هو قسيم الحقيقة، و إنما عنى بمجاز الآية ما يعبر به عن الآية " [35]. أو بعبارة أخرى – كما قال الدكتور شوقي ضيف: " عنى به تفسيرها و تأويلها "، قال:" ويتضح هذا المعنى منذ السطور الأولى في الكتاب، فقد جاء في فاتحته: "قال الله جل ثناؤه:﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴾[36]، مجازه: تأليف بعضه إلى بعض، ثم قال: ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴾[37]، مجازه : فإذا ألّفنا منه شيئا فضممناه إليك فخذ به واعمل به وضمّه إليك... " [38]، على أنه يلاحظ أنه اختار الآيات التي تصور طرقا مختلفة في الصياغة والدلالة، متمثلا بما يشبهها من أشعار العرب وأساليبهم، و شارحا لما تتضمنه من لفظ غريب. و أداه هذا الاختيار إلى أن يتحدث عما في الآيات من : استعارة وتشبيه وكناية و تقديم و تأخير و حذف و تكرار وإضمار..."[39].

إذا علم هذا...، فقد تحدث أبو عبيدة في كتابه عن "التمثيل "، حيث وردت هذه الكلمة عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ ﴾[40]، قال: "...ومجاز الآية مجاز "التمثيل "، لأن ما بنوه على التقوى أثبت أساسا من البناء الذي بنوه على الكفر والنفاق فهو على شفا جرف، وهو ما يجرف من

---

[35] أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية : "الإيمان " / تحقيق صدقي جميل عطار/ دار الفكر/بيروت / ط1: 1419هـ/ ص71.

[36] سورة القيامة، الآية 17

[37] سورة القيامة، الآية 18

[38] أبو عبيدة معمر بن المثنى : "مجاز القرآن " / تحقيق: أحمد فريد المزيدي / دار الكتب العلمية/ بيروت / ط1: 2006 / ص13

[39] شوقي ضيف : "البلاغة تطور و تاريخ " / دار المعارف/ مصر/1965/ ص29

[40] سورة التوبة، الآية 109

سيول الأودية فلا يثبت البناء عليه" [41]. والبحث الآن هو في دلالة هذه الكلمة– "التمثيل "- عند أبي عبيدة.

يرى الدكتور أحمد مطلوب أن "التمثيل " عند أبي عبيدة هو التشبيه أو تشبيه التمثيل، و نجده يقول بعد أن أورد تفسير أبي عبيدة للآية السابقة: "...وليس في هذا التفسير ما يعطي الفرق الواضح بين اللونين "[42].

والحقيقة أن التثبت من مدى صحة هذا الرأي، يستوجب الرجوع إلى كتاب أبي عبيدة، و البحث في مواضع أخرى من بين تفسيراته، عن كلام له قد يوقفنا على دلالة هذه الكلمة –كلمة تمثيل- عنده.

ولما رجعنا إلى الكتاب و بحثنا فيه، وجدنا المؤلف:

يقول عند قوله تعالى: ﴿ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ ﴾[43]: "مجازه، مجاز المثل والتشبيه، والقواعد الأساس. إذا استأصلوا شيئا قالوا هذا الكلام، و هو مثل..."[44].

ووجدناه يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ ﴾[45] : "مجازه مجاز المثل، وموضعه موضع: "كفّوا عما أمروا بقوله من الحق، ولم يؤمنوا به ولم يسلموا... "[46]

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾[47]يقول: " مجازه في موضع قولهم: "لا تمسك عما ينبغي لك أن تبذل من الحق، و هو مثل و تشبيه "[48]

[41] أبو عبيدة: " مجاز القرآن "، ص: 106.
[42] أحمد مطلوب : " معجم المصطلحات البلاغية و تطورها " / مكتبة لبنان/ طبعة: 2000 / ص332
[43]سورة النحل، الآية26.
[44]أبو عبيدة : "مجاز القرآن "، ص 138.
[45]سورة إبراهيم، الآية9.
[46]المصدر نفسه، ص 129.
[47]سورة الإسراء، الآية29.
[48]المصدر نفسه، ص 143.

إن التأمل في هذه التفسيرات التي قدمها أبو عبيدة، و الجمع بينها و بين ما جاء في تفسيره لآية التوبة السابقة، يوقفنا على الحقائق الآتية:

- **أولا:** أن كلمة "تمثيل " عند أبي عبيدة مرادفة لكلمة "مثل "، وكلمة "تشبيه "، فالتمثيل هو المثل و التشبيه.

- **ثانيا:** أن هذه المصطلحات الثلاث ترد عنده حسب دلالتها في اللغة، ذلك لأن دلالة التمثيل والتشبيه في اللغة واحدة، وكذلك دلالة المثل، ففي كتب اللغة يكاد ينحصر معنى المِثْل و المَثَل و المثيل، في التنظير و التشبيه و الفضل و قوة الظهور "[49]. وجاء في "مختار الصحاح " مادة: "م ث ل ": "مثل كلمة تسوية، يقال: هذا "مِثْلُه " و " مَثَلُه "، كما يقال: شِبْهه و شَبَهه، والمثل ما يضرب به من الأمثال..."[50]. وأبو عبيدة نفسه نجده يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾[51]: "مجازها: هذه الأشباه و النظائر نحتج بها، يقال: اضرب لي مثلا. قال الأعشى:

هل تذكُرُ العهدَ في تَنَمُّص إذْ تَضربُ لي قاعِداً بها مثَلا "[52]

ومما يؤيد ذلك أيضا أن أبا عبيدة يقرن لفظ "المثل" بلفظ "التشبيه "، من دون تفريق بينهما.

- **وثالثا:** وكنتيجة للحقيقتين الأوليين، يظهر أن مصطلحات كالتشبيه والاستعارة، لم تكن قد تحددت عند أبي عبيدة بالمعنى الاصطلاحي، فضلا عن أن تتميز عن بعضها البعض. واضطراب مدلولات المصطلحات- كما بين الدكتور علي عشري زايد- سمة بارزة من سمات التأليف البلاغي في المرحلة الأولى من مراحل البلاغة؛ وهي مرحلة النشأة [53]. بل إننا نرى أبا عبيدة يقرن أحيانا مصطلح

---

[49] عبد العظيم المطعني: "من قضايا البلاغة والنقد "/ مكتبة وهبة/ القاهرة/ ط1: 2002/ ص51

[50] أبو بكر بن عبد القادر الرازي: " مختار الصحاح " / دار الحديث/ القاهرة/2004 / ص331

[51] سورة العنكبوت، الآية 43

4 أبو عبيدة: "مجاز القرآن "، ص 211، و الأعشى ميمون بن قيس: "الديوان/ دار بيروت/ بيروت/ 1980/ ص 171

53 علي عشري زايد : " البلاغة العربية... "/مكتبة الآداب /القاهرة /ط4 : 2004/ص 35 وما بعدها

التشبيه بمصطلح الكناية كما في تفسيره لقوله تعالى : ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ ﴾[54] يقول عنه إنه "كناية وتشبيه " وواضح أنّ الآية –كما ذكر الدكتور زايد- صورة من صور التشبيه الذي أطلق عليه البلاغيون اسم التشبيه البليغ وهو الذي حذف منه وجه الشبه وأداة التشبيه... [55]

وإذا تقرر هذا، فلا يدرى ما الذي قصده الدكتور أحمد مطلوب بعبارة: "تشبيه التمثيل " في قوله إن التمثيل عند أبي عبيدة هو التشبيه أو تشبيه التمثيل ؟!ذلك لأن مثل تلك العبارة قد توحي بأن أبا عبيدة يكون قد عرف أو أدرك معنى "تشبيه التمثيل " بمعناه الاصطلاحي... وهذا بعيد.

وكذلك نرى الدكتور "شفيع السيد " يذكر بعد أن أورد تفسير أبي عبيدة للآية السالفة الذكر وهي قوله تعالى: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾.. أن عبارته تشي بإدراك معنى "الاستعارة التمثيلية " وإن لم يسمّها بذلك... قال : "والواقع أن استخدام كلمة "المثل " بمعنى الاستعارة التمثيلية شاع كثيرا في أوساط البلاغيين بعد ذلك "[56]. والحقيقة أن ما ذهب إليه الدكتور السيد من أن البلاغيين بعد أبي عبيدة قد شاع كثيرا في أوساطهم استخدام كلمة المثل بمعنى الاستعارة التمثيلية... لا يلزم منه أن يكون أبو عبيدة قد أدرك معنى الاستعارة التمثيلية كما أدركه من جاء بعده إذ إن كلامه لا يدل على ذلك بل يدلّ على أنه يريد المعنى اللّغوي للمثل كما سبق بيانه.

وقد ذكر الدكتور محمد أبو موسى أن الأستاذ كامل الخولي قد كتب بحثا ضافيا- في كتابه: "صور من تطوّر البيان العربي "- عن تطور دراسة التشبيه وتتبّع في بصر مراحل هذا التطور... فعرض لدراسة أبي عبيدة واستخلص في نهاية حديثه جهوده وركزها في قوله: "ويبدو من فهم أبي عبيدة للصور البيانية أنه لا يتعدى الفهم اللغوي فهو يتعرّض للفنّ البياني بحسب ما تفسّره اللغة فكلمة "مجاز " عنده طريق المعنى ... وكلمة "تمثيل " كما فسّرتها اللغة ترادف كلمة تشبيه"[57].

---

[54] سورة البقرة، الآية 223

[55] علي عشري زايد : " البلاغة العربية... " ، ص 30

[56] شفيع السيد : "البحث البلاغي عند العرب "/دار الفكر العربي/مدينة نصر/مصر/ط2: 1996/ص 21، 22

[57] محمد أبو موسى : "البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري " /دار الفكر العربي/ القاهرة/ بدون تاريخ/ ص 141

ابن قتيبـة الدينوري

أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت: 276هـ)، صاحب الكتاب المشهور: "تأويل مشكل القرآن "، والذي "صنفه للرد على الملاحدة وأشباههم الذين يطعنون على القرآن الكريم، فيقولون إن به تناقضا وفسادا في النظم، واضطرابا في الإعراب، وهو طعن مرده إلى جهلهم بأساليب العربية، ومن ثمّ ألّف كتابه، ليحق الحق ويبطل الباطل، عارضا فيه بعض آي الذكر الحكيم، مستشهدا لها بنصوص الشعر، ليقيم الدليل على ما يقوله، ويسقط دعوى الطاعنين ويمحوها... " [58]. والكتاب غني بالمباحث البلاغية، فقد تحدث فيه عن المجاز، والاستعارة، والقلب، والحذف والاختصار، والتكرار، والكناية والتعريض، والتقديم والتأخير... إلى غير ذلك.

أما التمثيل فقد ورد ذكره في الكتاب، في سياق حديث المؤلف عن العرب وما خصهم الله به من العارضة والبيان واتساع المجاز، وذلك في قوله: "وللعرب المجازات في الكلام، ومعناها: طرق القول ومآخذه، ففيها: الاستعارة، والتمثيل، والقلب، والتقديم والتأخير، والحذف، والتكرار، والإخفاء، والإظهار، والتعريض، والإفصاح، والكناية، والإيضاح، ومخاطبة الواحد مخاطبة الجميع، والجميع خطاب الواحد، والواحد والجميع خطاب الاثنين، والقصد بلفظ الخصوص لمعنى العموم، وبلفظ العموم لمعنى الخصوص، مع أشياء كثيرة ستراها في أبواب المجاز إن شاء الله تعالى "[59].

وقد تحدث ابن قتيبة عن كثير من طرق القول و مآخذه، و توسع في التمثيل لها، وهي التي سماها بـ "المجازات في الكلام ". و كأن كلمة "المجاز " عنده – كما يقول الدكتور شوقي ضيف- لا تزال تستخدم

[58] شوقي ضيف : "البلاغة تطور وتاريخ "، ص 58

[59] عبد الله بن مسلم ابن قتيبة : "تأويل مشكل القرآن "/ تحقيق: السيد أحمد صقر / المكتبة العلمية/ بدون تاريخ / ص20-21

بمعناها الواسع الذي استخدمها فيه أبوعبيدة [60]. وكذلك يرى الدكتور شفيع السيد أن ابن قتيبة تأثر في الروح العامّ لمنهجه في التأويل لما أشكل من آيات القرآن... بمنهج أبي عبيدة من حيث الرجوع إلى

أساليب العرب في التعبير والقياس عليها والاهتداء بها... قال : "بل إنه استخدم كلمة "المجاز " التي كانت مفتاح أبي عبيدة إلى فهم أساليب القرآن بالمفهوم نفسه الذي قصده أبو عبيدة " [61]... ولكن ابن قتيبة لم يعرض في كتابه "للتمثيل "، ولا نجد له كلاما عنه ما عدا تلك الإشارة السابقة حينما عدّه من مجازات العرب في كلامها أي من أساليبها في التعبير- كما ذكرنا... وهذا ممّا قد يرجح أنّ هذا المصطلح يرد عنده بنفس الدلالة التي ورد بها عند أبي عبيدة من قبله، وهي "المثل والتشبيه" بالمعنى اللغوي.

[60] شوقي ضيف: البلاغة تطور و تاريخ "/ ص 59.
[61] شفيع السيد: " البحث البلاغي عند العرب "، ص 22

قدامـة بن جعفـر

هو أبو الفرج قدامة بن جعفر (ت: 327هـ)، و كتابه المشهور في النقد والبلاغة، هو كتاب "نقد الشعر "، و قد خطا فيه مؤلفه بالمباحث البلاغية خطوات محمودة، و وفّق فيه "توفيقا منقطع النظير، وهو توفيق جعل من يكتبون في البديع بعده يلهجون باسمه، وفي مقدمتهم أبو هلال العسكري صاحب "الصّناعتين "، وكذلك من كتبوا في عيوب الشعر و وجوه رداءته، و في مقدمتهم المرزباني في كتابه "الموشّح "[62].

و أما كتاب "نقد النثر " المشهور نسبته إلى قدامة بن جعفر، فهو:

- **أولا :** ليس صحيح النّسبة إليه كما ذكر الدكتور شوقي ضيف [63] ، بل هو جزء من كتاب اسمه: " البرهان في وجوه البيان "، لرجل يدعى إسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب، عثر عليه أحد الباحثين في بعض المكتبات الأوربية...

- **ثانيا:** ليس فيه ذكر "للتمثيل "، و لذلك ضربنا عنه صفحا.

وقد تحدث قدامة بن جعفر في كتابه "نقد الشعر " عن "التشبيه "، و عدّه من نعوت أهم أغراض الشعراء في المعاني[64]، وجعله قسيما للمدح والهجاء والمراثي والنّسيب والوصف. و تحدث عن "التمثيل" في موضع آخر من كتابه، و عدّه من نعوت ائتلاف اللّفظ مع المعنى، و صنيعه هذا يوحي بأن "التمثيل " عنده غير "التشبيه "، و هذا هو الصواب، و يؤكده التعريف الذي ذكره قدامة للتمثيل، والأمثلة التي مثل له بها -كما سيأتي- قال الدكتور أحمد مطلوب - بعد أن ذكر دلالة كلمة "تمثيل " عند أبي عبيدة بن

[62] شوقي ضيف: "البلاغة تطور و تاريخ "، ص 92.
[63] المرجع نفسه، ص93 و ما بعدها.
[64] قدامة بن جعفر: "نقد الشعر "/ تحقيق: محمد عبد المنعم خفّاجي / دار الكتب العلمية/ بيروت/ بدون تاريخ / ص124

المثنى -: "... ولعل قدامة كان أوّل من عدّ التّمثيل مخالفا للتّشبيه، و هو عنده من نعوت ائتلاف اللّفظ والمعنى "[65].

قال قدامة: "ومن نعوت ائتلاف اللّفظ و المعنى: " التمثيل "، وهو: أن يريد الشّاعر إشارة إلى معنى، فيضع كلاما يدلّ على معنى آخر، و ذلك المعنى الآخر والكلام ينبئان عمّا أراد أن يشير إليه..."[66]، فإذا أراد الشاعر العبارة عن معنى من المعاني فوضع كلاما يدلّ على معنى آخر وذلك المعنى الآخر مع سياق الكلام ينبئان عمّا أراد أن يشير إليه... فذلك هو التمثيل عند قدامة...[67]

وقد نقل الدكتور أحمد مطلوب عن قدامة نفسه في كتاب له آخر سمّاه "جواهر الألفاظ " نحو هذا التعريف، فقال: "... و قال قدامة أيضا: "و التّمثيل أن يراد الإشارة إلى معنى، فتوضع ألفاظ تدلّ على معنى آخر، و ذلك المعنى و تلك الألفاظ مثال للمعنى الّذي قصد بالإشارة إليه و العبارة عنه. كما كتب يزيد بن الوليد إلى مروان بن محمّد، حين تلكّأ عن بيعته: " أمّا بعد فإنّي أراك تقدّم رجلا و تؤخّر أخرى، فإذا أتاك كتابي هذا فاعتمد على أيّهما شئت و السّلام، فلهذا التّمثيل من الموقع ما ليس له لو قصد للمعنى بلفظه الخاصّ حتى لو أنّه قال مثلا: "بلغني تلكّؤك عن بيعتي، فإذا أتاك كتابي هذا فبايع أولا "، لم يكن لهذا اللّفظ من العمل في المعنى بالتّمثيل ما لما قدّمه "[68].

وهذا المثال الّذي أورده قدامة في "جواهر الألفاظ "، أدخله المتأخرون من علماء البلاغة تحت ما سمّوه بـ "الاستعارة التّمثيلية "، وهي من المجاز المركّب، فقد عرّف الخطيب القزويني المجاز المركّب بأنه:

---

[65] أحمد مطلوب: "معجم المصطلحات البلاغية و تطورها "، ص 332.
[66] قدامة بن جعفر: "نقد الشعر "/ ص 159-160.
[67] بدوي طبانة : " قدامة بن جعفر والنقد الأدبي "/مكتبة الأنجلو المصرية/القاهرة/ط3: 1969/ص 308
[68] أحمد مطلوب: "معجم المصطلحات البلاغية و تطورها "، ص 332.

"اللّفظ المركّب المستعمل فيما شبّه بمعناه الأصلي تشبيه التّمثيل للمبالغة في التّشبيه "، و ذكر عبارة يزيد بن الوليد مثالا له... [69]

وفي كتابه "نقد الشّعر " أورد قدامة أمثلة وشواهد أخرى على ما سمّاه "التمثيل "، منها: قول الرّماح بن ميّادة:

أَلم تَكُ في يُمنَى يدَيْكَ جعلْتَني   فلا تجعَلَنِّي بعدَها في شمالِكا

ولوْ أنَّني أذْنبتُ ما كُنتُ هالكاً   على خَصْلةٍ من صالحاتِ خِصالكا

قال: فعدل أن يقول في البيت الأوّل: إنّه كان عنده مقدّما فلا يؤخّره، أو مقرّبا فلا يبعده، أو مجتبى فلا يجتنبه... إلى أن قال: إنّه كان في يمنى يديه فلا يجعله في اليسرى، ذهابا نحو الأمر الّذي قصد الإشارة إليه بلفظ ومعنى يجريان مجرى المثل له، والإبداع في المقالة[70].

قال الدكتور شوقي ضيف معلّقا على هذا المثال: "...وواضح أنّه كنى باليمين عن تقدّمه عنده، وبالشّمال عن تأخّره وهبوط منزلته، وهذا المثال إنّما هو ضرب من التّعريض والكناية "[71].

ومنها قول عُمَير بن الأيْهم:

راحَ القَطينُ مِنَ الأوْطانِ أو بَكَرُوا   وصدَّقوا مِنْ نهار الأمسِ ما ذَكَرُوا

قالُوا لَنا - وَ عرَفْنا بُعدَ بَيْنِهِمُ-   قولاً، فما ورَدُوا عنه وَ ما صَدَرُوا

[69] الخطيب القزويني : "الإيضاح في علوم البلاغة " / وضح حواشيه: إبراهيم شمس الدّين / دار الكتب العلمية/ بيروت/ ط 1: 2003 / ص231، و "التّلخيص "/ شرح عبد الرّحمن البرقوقي / دار الفكر العربي/ ط 2: 1932 / ص322 . وأحمد مطلوب: "معجم المصطلحات البلاغية و تطورها "، ص 332

[70] قدامة بن جعفر: "نقد الشّعر " / ص 160

[71] شوقي ضيف: "البلاغة تطور و تاريخ "/ ص90

قال: فكان يستغني عن قوله: " فما وردوا عنه و ما صدروا "، بأن يقول: فما تعدّوه، أو يقول: فما تعدّوه أو فما تجاوزوه. . ، ولكن لم يكن له من موقع الإيضاح وغرابة المثل ما لقوله: " فما وردوا عنه و لا صدروا "[72]

ومنها قول بعض بني كلاب:

دَعِ الشَّرَّ واحْلُلْ بالنَّجاةِ تعزُّلاً   إذاَ هو لم يَصْبُغْكَ في الشَّرِّ صَابِغُ

ولكنْ إذا ما الشَّرُّ ثارَ دَفِينُهُ   عليكَ فانْضَحْ مِنه ما أنتَ دَابِـغُ

قال: فأكثر اللّفظ والمعنى في هذين البيتين جار على سبيل التّمثيل، وقد كان يجوز أن يقال مكان ما قيل فيه: "دع الشّرّ ما لم تنشب فيه، فإذا نشبت فيه فبالغ ". لكن لم يكن لذلك من الحظّ في الكلام الشّعريّ و التّمثيل الطّريف ما لقول الكلابيّ... "[73].

- ومن ذلك قول بعضهم :

تركْـتُ الرِّكَـابَ لأَرْبـابِهَا   وأَكْرَهْتُ نفْسي على ابْنِ الصَّعِقْ

جعلْتُ يَدَيَّ وِشـــاحاً له   فأَجْـــزَأَ ذاكَ عنِ المُعْــتَنَقْ

فقوله : "جعلت يدي وشاحا "... إشارة بعيدة بغير لفظ الاعتناق وهي دالّة عليه[74].

- ومثل ذلك قول عبد الرحمان بن علي بن علقمة بن عبدة :

أوْرَدتُهُمْ وصُدورُ العِيسِ مُسْنِفَةٌ   والصّبحُ بِالكَوكَبِ الدُّرِّيِّ مَنحورُ

قال : "فقد أشار إلى الفجر إشارة ظريفة بغير لفظه "[75].

[72] قدامة بن جعفر: "نقد الشعر "/ ص 160
[73] قدامة بن جعفر: "نقد الشعر "/ ص160_161
[74] المصدر نفسه، ص 161

وهذا البيت أورده ابن المعتز في كتابه "البديع " وجعله من الاستعارة حيث قال بعد إيراده :"وإنما هو استعارة الكلمة لشيء لم يعرف بها من شيء قد عرف بها..."[76]

- وقال بعض الأعراب:

فتىً صدَمَتْهُ الكَأْسُ حتىَّ كأنَّما   بهِ فالِجٌ مِن دائِها فَهْو يَرْعَشُ

قال: "فالكأس لا تصدم ولكنّه أشار بهذا التمثيل إشارة حسنة إلى سكره "[77].

- وقال عباس بن مرداس :

كانُوا أمامَ الُمسلمِينَ رَدِيئَةً   وَالبِيضُ يَوْمَئِذٍ علَيهِمْ أَشْمُسُ

قال : "يريد أن البيض عليهم قد صارت شموسا "[78]

ويرى الدكتور بدوي طبانة أن كلام قدامة في التمثيل، والأمثلة التي ذكرها له تنطبق على ما يسميه البلاغيون :" الاستعارة التمثيلية " أو"الاستعارة في المركب"[79]، بينما يرى الدكتور شوقي ضيف أن بعض ما سماه قدامة باسم التمثيل يدخل في التعريض و الكناية أو ما سماه قدامة الإرداف. [80]

ويمكن أن نخلص بعد هذا البيان إلى أن التمثيل عند قدامة بن جعفر: "يشمل الاستعارة التمثيلية وبعض صور الكناية. "[81]

[75] المصدر نفسه، ص 161
[76] عبد الله ابن المعتز: " البديع "، ص 75
[77] قدامة بن جعفر: "نقد الشعر "، ص162
[78] قدامة بن جعفر: "نقد الشعر "، ص 162. وينظر بيت ابن مرداس في : عماد الدين ابن كثير الدمشقي: "البداية والنهاية " /تحقيق: جودة محمد جودة، ومحمد حسني الشعراوي /دار ابن الهيثم/ القاهرة/ ط1: 2006 / ج5/ ص 107
[79] بدوي طبانة: " قدامة بن جعفر والنقد الأدبي "، ص 388
[80] شوقي ضيف: "البلاغة تطور وتاريخ "، ص 90
[81] المرجع نفسه، ص 90

والحقيقة أن لقدامة يدا بيضاء على هذا الفن، فهو أول من وضع له حدا – فيما علم-، ومثّل له بأمثلة توضحه، وبالتالي فقد سار به نحو شيء من التحديد، وقد ذكر الدكتور طبانة أن التمثيل من الفنون التي انفرد قدامة باستخراجها. [82]

[82] بدوي طبانة: " قدامة بن جعفر والنقد الأدبي "، ص 395

أبـو هـلال العسكري

هو الحسن بن عبد الله بن سهل (ت: 395هـ)، صاحب الكتاب المشهور في الدّراسات النقدية والبلاغية و الأدبيّة، ألا و هو كتاب "الصناعتين- في صناعة الكتابة و الشّعر. وهو كتاب حافل بالمباحث البلاغيّة، أفاد فيه مؤلّفه من كتابات سابقيه ومعاصريه، من أمثال الجاحظ، و قد نوّه به في مقدّمة كتابه-[83]، و قدامة بن جعفر، وعليّ بن عيسى الرّمانيّ... وغيرهم، و زاد أشياء على ما أوردوه، كما ذكر هو نفسه في كتابه، عند شرحه لأنواع البديع في الباب التّاسع الّذي أفرده لذلك[84].

وتحت هذا الباب التاسع، أورد أبو هلال خمسة و ثلاثين فصلا، بعدد أنواع البديع عنده، والّذي يهمّنا منها هو الفصل التّاسع الّذي عقده للحديث عمّا سمّاه: "المماثلة ".

وقبل الشّروع في بيان كيفيّة عرضه لها، نقف قليلا عند هذا المصطلح "المماثلة "، فقد ذكر الدّكتور شوقي ضيف أنّ هناك سبعة مصطلحات اصطلح عليها أبو هلال مجهولة النّسبة ، وهو يرجّح أنه جلبها من رسالة خاله وأستاذه أبي أحمد العسكري (ت: 382)[85] في "صناعة الشّعر "، وهذه المصطلحات هي: "المماثلة "، والتّذييل، والاستطراد، وجمع المؤتلف والمختلف، والسّلب والإيجاب، والاستثناء، والتّعطّف ". وذكر من الأدلّة على ذلك ذكر الباقلاّنيّ لها جميعا في كتابه "إعجاز القرآن "، ما عدا جمع المؤتلف والمختلف، و تصريحه في بعضها أنّه ينقل عن أبي أحمد. و كذلك ما ذكره عبد القاهر الجرجانيّ في كتابه "أسرار البلاغة "، في ثنايا عرضه للتّمثيل، بعد استشهاده له بكلمة يزيد بن الوليد لمروان بن محمّد حيث

---

[83] أبو هلال العسكري: "الصناعتين " / تحقيق : مفيد قميحة / دار الكتب العلمية/ بيروت/ ط2: 1989 / ص13

[84] المصدر نفسه / ص294.

[85] ترجمته في: ياقوت الحموي: "معجم الأدباء " / دار الفكر/ ط3: 1980/ ج8/ ص 233 إلى 258

قال: "وذكر أبو أحمد العسكري أنّ هذا النّحو من الكلام يسمّى "المماثلة "، وهذه التّسمية توهم أنّه شيء غير المراد بالمثل و التّمثيل، و ليس الأمر كذلك "[86].

وإذا تقرّر هذا، فلنشرع الآن في عرض هذا الفنّ - "المماثلة "-كما ورد في كتاب "الصناعتين "، حتّى نقف على مدلولها عند أبي هلال. و هو يعرّفها بقوله: "المماثلة أن يريد المتكلّم العبارة، فيأتي بلفظة تكون موضوعة لمعنى آخر: إلاّ أنّه ينبئ إذا أورده عن المعنى الّذي أراده " [87]. وهذا التعريف عند التدقيق هو نفس التعريف الذي وضعه قدامة بن جعفر "للتّمثيل " [88]؛وإن اختلفت العبارتان بعض الشيء. كما أنّنا نجد أبا هلال يستخدم كلمة "تمثيل "؛ عند إيراده لبعض الأمثلة و تعليقه عليها، فمن ذلك:

قوله بعد إيراد التعريف السابق: "كقولهم: "فلان نقي الثوب "، يريدون به أنه لا عيب فيه، و ليس موضوع نقاء الثّوب البراء من العيوب، و إنّما استعمل فيه تمثيلا "[89].

و قوله عند قول بعض الشّعراء:

تركْتُ الرِّكابَ لأرْبابِها وأكْرهْتُ نَفسي علَى ابنِ الصَّعِقْ

جعلتُ يديَّ وِشاحاً له وبعضُ الفَوارِسِ لا تَعتَنِقْ

فقوله: " جعلت يدي وشاحا له " تمثيل [90].

وكذا قوله عند قول زهيــر في معلّقته:

ومَنْ يَعْصِ أطْرافَ الزِّجاجِ فإنَّهُ يُطيعُ العَوالِي رُكِّبَتْ كُلَّ لَهْذَمِ

أراد أن يقول:"من أبى الصّلح رضي بالحرب"؛ فعدل عن لفظه، وأتى بالتّمثيل [91].

[86] عبد القاهر الجرجاني: "أسرار البلاغة " ، ص113. وشوقي ضيف: "البلاغة تطوّر وتاريخ "/ ص143 و ما بعدها.
[87] أبو هلال العسكري: "الصناعتين "/ ص 389.
[88] قدامة بن جعفر: "نقد الشّعر "/ ص159-160.
[89] أبو هلال العسكري: " الصناعتين " / ص389.
[90] أبو هلال العسكري : " الصناعتين "، ص 392.

وهذا يدل بوضوح على أنّ "المماثلة " عند أبي هلال هي "التّمثيل " عند قدامة بن جعفر، وحتى الشاهد الأول الذي مثّل به قدامة في كتابه "للتّمثيل "، وهو قول الرّماح بن ميّادة: [92]

ألم تكُ في يُمنى يدَيكَ جعَلْتَني فلا تَجْعَلَنّي بعدَها في شِمالِكا

ولوْ أنّني أذْنَبْتُ ما كنتُ هالِكاً على خَصْلةٍ من صالِحاتِ خِصالِكا

نجد أبا هلال يورده أيضا[93]، وأمثلة أخرى سيأتي ذكرها.

ولكن أبا هلال- ومقارنة بقدامة - توسع أكثر في إيراد الأمثلة والشّواهد، وفيما يلي طرف منها:

فمن ذلك من القرآن، قوله تعالى: ﴿كَٱلَّتِى نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا ﴾[94]، فمثل العمل ثمّ إحباطه بالنّقض بعد الفتل. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَـٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا﴾[95]، وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ﴾[96]، فمثل البخيل الممتنع من البذل بالمغلول لمعنى يجمعها؛ وهو أنّ البخيل لا يمدّ يده بالعطيّة، فشبّهه بالمغلول... [97].

ومن كلام العرب، قولهم: " عركت هذه الكلمة بجنبي "، إذا أغضيت عنها، "وفلان قد طوى كشحه عن فلان، إذا ترك مودّته و صحبته... ويقولون : كبا زند العدوّ، وصلف زنده، وأفل نجمه، وذهبت ريحه، و طفئت جمرته، وأخلف نوؤه، وأخلقت جدّته، وانكسرت شوكته، وكلّ حدّه، وانقطع بطانه، وتضعضع

[91]المصدر نفسه " ص 392. و زهير بن أبي سلمى: " الديوان " / المكتبة الثقافية / بيروت / بدون تاريخ. / ص32

[92] قدامة بن جعفر: "نقد الشّعر "، ص 160.

[93]أبو هلال العسكري: "الصناعتين "، ص 392.

[94] سورة النحل، الآية 92.

[95] سورة النحل، الآية 94

[96] سورة الإسراء، الآية 29

[97] أبو هلال العسكري: "الصناعتين "، ص 391.

ركنه، وضعف عقده، وذلّت عضده، وفتّ في عضده، ورقّ جانبه، ولانت عريكته، يقال ذلك فيه إذا ولّى أمره تمثيلا و تشبيها... [98]

ومن أمثلة الشّعر التي أوردها :

- قول امرئ القيس في معلقته:

وما ذرفَتْ عَيْناكِ إلاَّ لِتَضْرِبِي بِسَهْمَيْكِ في أَعْشارِ قَلْبٍ مُقَتَّلِ

فقال بسهميك، و أراد العينين [99]...

ومن ذلك قول العبّاس بن مرداس:

كانُوا أمامَ المؤْمِنِينَ دَرِيئَةً والشَّمْسُ يوْمَئِذٍ علَيهِم أشْمُسُ

أراد: تلألؤ البيض في الشّمس، فكان على كلّ رأس شمسا [100]. وقد أورد قدامة بن جعفر هذا البيت من قبله. [101]

ومن أمثلة الشعر التي أوردها أبو هلال، وسبقه قدامة في الاستدلال بها ما ذكرناه سابقا من قول بعضهم:

تركتُ الرِّكابَ لأَرْبابِها.......... [102]

كما ذكر أبو هلال أن مما عيب من هذا الباب، قول أبي تمام:

---

[98] المصدر نفسه، ص 391

[99] أبو هلال العسكري : "الصناعتين "، ص 392-393. وأبو عبد الله الحسين الزوزني : "شرح المعلّقات السبع " / مكتبة المعارف/ بيروت/ ط5: 1985/ ص23

[100] أبو هلال العسكري: "الصناعتين "/ ص 393.

[101] قدامة بن جعفر: "نقد الشعر "، ص 162

[102] المصدر نفسه، ص 161

أنتَ دَلْوٌ وَذو السَّماحِ أَبُو   موسَى قَلِيبٌ، وَ أنتَ دلْوُ القَليبِ

أيُّها الدَّلْوُ لا عَدِمْتُكَ دَلْـواً   مِنْ جِيادِ الدِّلاءِ صُلْبِ الصَّليبِ [103]

وهذه الأمثلة وغيرها مما أورده أبو هلال تدل أن مفهوم "المماثلة " أو التمثيل عنده كان عاما، ذلك أننا نجده يطلقه على كثير من الصور البيانية، كالاستعارة، والكناية، والتشبيه الاصطلاحي... فالاستعارة كما في : أبيات بن مرداس، وامرئ القيس، و زهير، وآية النحل: 94، وآية الاسراء: 29... والكناية كما في قول ابن ميادة السابق، وقول العرب: "فلان نقي الثوب "كناية عن براءته من العيب... والتشبيه كما في آية النحل: 92، وقول أبي تمام السابق...

و برغم ذلك نجده يرد على قدامة جعله من أمثلة باب "التّمثيل " قول الشاعر:

أوْرَدتُهُمْ وَصُدورُ العِيسِ مُسْنِفةٌ   وَ الصُّبحُ بِالكَوكَبِ الدُّرِّيِّ مَنْحورُ

و قوله-أي قدامة-: " قد أشار إلى الفجر إشارة إلى طريقه بغير لفظه "[104].

قال أبو هلال: "... و ليس في هذا البيت إشارة إلى الفجر بل قد صرح بذكر الصّبح وقال هو منحور بالكوكب الدّرّي، أي: صار في نحره... و وضع هذا البيت في باب الاستعارة أولى منه في باب المماثلة! "[105] كما نجده في آخر باب "الإرداف والتّوابع "، يقول: "و قد أدخل بعض من صنّف في هذا أمثلة باب الإرداف في باب المماثلة، و أمثلة باب المماثلة في باب الإرداف، فأفسد البابين جميعا، فلخّصت ذلك وميزته، و جعلت كلا في موضعه، و فيه دقة و إشكال! " [106]. وكلام أبي هلال هذا يدلّ على أن مباحث الاستعارة و الكناية والتشبيه و المجاز لم تكن قد تحددت و تميزت في عصره التميز الكامل، بل بقي بينها بعض الخلط، وبخاصة في باب الشواهد والأمثلة.

[103] أبو هلال العسكري: "الصناعتين "، ص 393
[104] قدامة بن جعفر: "نقد الشّعر "/ ص161
[105] أبو هلال العسكري : "الصناعتين "/ ص 393.
[106] المصدرنفسه، ص 388.

أبو بكر الباقلاني

ونلتقي بعد أبي هلال العسكري، بأحد أعلام المتكلمين على مذهب الأشاعرة، وهو أبو بكر محمد بن الطّيب الباقلاني (ت: 403هـ)، وكتابه الذي يهمنا من بين سائر كتبه، هو كتابه المشهور"إعجاز القرآن"،والذي ألفه لبيان وجه الإعجاز في الكتاب العزيز، "فنوه بنظم القرآن العجيب الذي يعد في الذروة من البلاغة، ونفى أن يكون مدار إعجازه: البديع، أو أقسام البلاغة التي عددها الرماني. ولكي يوضح ذلك عرض لفنون البديع، كما عرض لأقسام البلاغة عند الرماني عرضا فيه كثير من التّفصيل "[107].

ويظهر بوضوح عند الرجوع إلى الكتاب، تأثر الباقلاني الشديد- في عد وجوه البديع- بمن سبقوه، كابن المعتز[108]، و قدامة، وأبي هلال العسكري، و خاله و أستاذه أبي أحمد العسكري، و قد سبقت الإشارة إلى تأثره بهذا الأخير عند أوّل حديثنا عن أبي هلال. و لعل سبب هذا التأثر يرجع إلى أنّ الباقلاني لم يكن يقصد إلى التأليف في علوم البلاغة، أو في فنون البديع، وإنما كان قصده -كما أسلفنا- بيان وجه الإعجاز في القرآن، و لما كان هناك من رد وجه الإعجاز إلى ما اشتمل عليه القرآن من فنون البديع، أو إلى أقسام البلاغة التي ذكرها الرماني في "النكت "، فقد عرض لها لينفي إمكان تفسير وجه الإعجاز بها.

و إذا علم هذا، فلا نعجب بعد ذلك حين نراه يطلق لفظ "المماثلة "، كما أطلقه أبو أحمد و أبو هلال العسكريان، وحين نراه-أيضا- يفسرها تفسير أبي هلال، وقدامة من قبله، فيقول: "...ذلك أن يقصد الإشارة إلى معنى، فيضع ألفاظا تدل عليه و ذلك المعنى بألفاظه، مثال للمعنى الذي قصد الإشارة إليه "[109].

---

[107] شوقي ضيف: "البلاغة تطور و تاريخ "/ ص 371.

[108] محمد عبد المنعم الخفّاجي: مقدمة التحقيق لكتاب "البديع " لابن المعتز، ص49

[109] أبو بكر الباقلاني : "إعجاز القرآن" / تحقيق: عماد الدين أحمد حيدر / مؤسسة الكتب الثقافية / بيروت/ ط4/ بدون تاريخ / ص 103

والأمثلة التي أوردها[110] -وهي قليلة- أكثرها وردت عند من سبقوه، ككلمة يزيد بن الوليد لمروان بن محمد: "... فإني أراك تقدم رجلا و تؤخر أخرى، فاعتمد على أيتهما شئت "- وقد سبق أن قدامة أورد هذا المثال في كتابه "جواهر الألفاظ ".

- وكقول زهير في معلقته:

ومَنْ يَعْصِ أطْرافَ الزِّجاجِ.................

- وقول امرئ القيس أيضا في معلقته:

وما ذرَفَتْ عَيْناكِ إلاّ لِتَضْرِبي.................

وقد تقدم ذكرهما عند أبي هلال.

- ومن أمثلته المستجدّة، قول عمرو بن معدي كرب[111] :

فلَوْ أنَّ قوْمي أَنطَقَتْني رِماحُهُمْ نطَقْتُ، وَلكنَّ الرِّماحَ أَجَرَّتِ

و قول آخر[112] :

بَنِي عَمِّنا لا تَذْكُرُوا الشِّعْرَ بعدَما دفَنْتُمْ بِصَحْراءِ الغُمَيْرِ القَوافِياَ

و قول آخر:

أقولُ وَ قَدْ شَدُّوا لِساني بِنِسْعَةٍ أَمَعْشَرَ تَيْمٍ أَطْلِقوا عَن لِسانِياَ

[110] المصدر نفسه، ص 103-104

[111] عبد الملك بن قريب الأصمعي: "الأصمعيات "/ تحقيق وشرح : سعدي ضناوي / دار الكتب العلمية/ بيروت/ ط1: 2004 / ص 158

[112] ينسب إلى الشّميذر الحارثي كما في: أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي: "شرح ديوان الحماسة "/ تحقيق: أحمد أمين وعبد السّلام هارون / دار الجيل/ بيروت/ ط1: 1991 / ج1/ص124

ومن أمثلة القرآن التي أوردها، قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾[113]، قال الأصمعي: أراد البدن، قال: وتقول العرب: " فدا لك ثوباي "، يريد نفسه. وأنشد:

أَلاَ أَبْلِغْ أبَـا حَفْصٍ رَسولاَ   فِداً لَكَ مِن أَخِي ثِقَـةٍ إِزارِي

ولكن الباقلاني ذكر عبارة مهمة، ردّدها ابن رشيق القيرواني من بعده، وهي جعله "المماثلة " ضربا من ضروب الاستعارة، قال: " وممّا يعدّونه من البديع: "المماثلة "؛ وهي "ضرب من الاستعارة " [114]. بينما فرق أبو هلال بينهما –كما سبق ذكره.

ولعلّ عبد القاهر الجرجاني يكون قد استفاد منها، ومن الشّاهد الأول الذي أورده الباقلاني، وهو كلمة يزيد بن الوليد لمروان بن محمد، ذلك لأن عبد القاهر ذكر في "دلائل الإعجاز "أن "التّمثيل " قد يكون مجازا، إذا جاء على حد الاستعارة. قال: "... وأمّا التّمثيل الذي يكون مجازا لمجيئك به على حد الاستعارة، فمثاله قولك للرجل يتردّد في الشيء بين فعله وتركه: " أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى ". فالأصل في هذا: أراك في تردّدك كمن يقدم رجلا ويؤخر أخرى، ثمّ اختصر الكلام، وجعل كأنه يقدم الرجل ويؤخرها على الحقيقة... "[115]، وسيأتي ذكر ذلك .

[113] سورة المدثر، الآية 4

[114] أبو بكر الباقلاني: "إعجاز القرآن "/ ص 103.

[115] عبد القاهر الجرجاني : "دلائل الإعجاز، ص 68-69

ابن رشيق القيرواني

وهو أبو عليّ الحسن بن رشيق المسيلي ثمّ القيرواني، الأزدي (ت: 456 أو 463هـ)، "الأديب الناقد، صاحب الكتاب القيم الذي ذاعت شهرته في المغرب والمشرق، وحل لدى عارفيه المحلّ الأرفع: "العمدة في صناعة الشّعر ونقده "[116]، و الذي جمع فيه -كما ذكر هو نفسه في مقدمته-أحسن ما قاله كل واحد ممّن سبقوه-في الشعر وصنعته، وعول في أكثره على قريحة نفسه، ونتيجة خاطره، خوف التكرار، ورجاء الاختصار، إلا ما تعلق بالخبر، وضبطته الرّواية، فإنه لا سبيل إلى تغيير شيء من لفظه و لا معناه، ليؤتى بالأمر على وجهه... [117].

والكتاب في جزأين، وقد وزعه مؤلفه على نحو مائة باب، وأفرد فيه للبديع خمسة و ثلاثين باب مثل أبي هلال، وغايره في بعض الأسماء والمصطلحات. وعرض في جميع الأبواب آراء البلاغيين من قبله مضيفا كثيرا من الملاحظات الدّقيقة[118].

و تتميز دراسة ابن رشيق لما ذكره من فنون البديع بأنها أكثر تفصيلا، وإن كان قد سار فيها على منهاج أشبه بمنهاج أبي هلال، فهو أولا يعرف الفن البديعي ثم يشفعه بالأمثلة والشّواهد من منظوم الكلام و منثوره، وقلّما عرض للشّاهد بالتّوضيح اعتمادا على فطنة القارئ. و في المصطلحات نلاحظ أنه إذا آثر مصطلحا بعينه لفن بديعي، فإنه يذكر الآخر عند هذا أو ذاك ممّن سبقوه إلى البديع. ففي

---

[116] عبد العظيم المطعني : "من قضايا البلاغة و النّقد "، ص 13.

[117] أبو علي الحسن بن رشيق : "العمدة " / تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد / طبعة دار الجيل/ بيروت/ بدون تاريخ / ج 1/ ص 16، 17

[118] شوقي ضيف: "البلاغة تطور و تاريخ "، ص 146 مع 372 باختصار.

"الاستثناء " يقول: و ابن المعتز يسميه توكيد المدح بما يشبه الذّم[119]، وفي كلامه عن "المطابقة " يقول: وسمّى قدامة هذا النّوع - الذي هو المطابقة عندنا- "التكافؤ "[120]... [121]

و في باب "التّمثيل " أيضا، نجده يقول: " و هو المماثلة عند بعضهم " [122]، في إشارة واضحة إلى أبي هلال العسكري، و أبي أحمد العسكري، و أبي بكر الباقلاني، وقد سبق الحديث عنهم.

و"التّمثيل " عند ابن رشيق من ضروب الاستعارة [123]، و قد عرّفه بقوله: "وذلك أن تمثّل شيئا بشيء فيه إشارة "[124]، وهو بذلك متابع في دلالته قدامة بن جعفر[125].

ثم أورد بيت امرئ القيس السابق - و هو عنده أوّل من ابتكره :

و ما ذرفَتْ عيناكِ إلاَّ لِتَقْدَحي   بِسَهمَيكِ في أَعْشارِ قلبٍ مُقَتَّلِ

فمثّل عينيها بسهمي الميسر يعني المعلّى، و له سبعة أنصباء، و الرّقيب، وله ثلاثة أنصباء – فصار جميع أعشار قلبه للسّهمين اللّذين مثّل بهما عينيها، و مثّل قلبه بأعشار الجزور، فتمّت له جمات الاستعارة والتّمثيل[126].

و ما أورده بعد ذلك من شواهد، فمبتكر . والملاحظ أن أكثر تلك الشواهد؛ هو "من قبيل الكناية والتشبيه الاصطلاحي "[127].

فمن ذلك: قول الأخطل يهجو النّابغة بن جعدة: [128]

---

[119] ابن رشيق: "العمدة "، ج2/ ص 48.
[120] المصدر نفسه، ج2/ ص 5
[121] عبد العزيز عتيق: "علم البديع "/ دار الآفاق العربية/ القاهرة/ ط 1: 2006/ ص 19. و "في تاريخ البلاغة العربية / دار النّهضة العربية/ بيروت/ بدون تاريخ. / ص 234-235
[122] ابن رشيق: "العمدة "/ ج1/ ص 277.
[123] المصدر نفسه. ج1/ ص 277
[124] المصدر نفسه. ج1/ ص 277
[125] ينظر : ضيف: "البلاغة تطور وتاريخ "، ص148
[126] ابن رشيق: "العمدة "/ ج1/ ص 277.
[127] ابن عبد الله شعيب : "علم البيان "/دار الهدى/عين مليلة/الجزائر/بدون تاريخ /ص26.

لقَدْ جازَى أبُو لَيْلَى بِقَحْمٍ وَمُنْتَكِثٍ عَنِ التَّقْرِيبِ وَانِ

إذاَ هَبَطَ الخَبارَ كَبا لِفِيهِ وخَرَّ على الجَحافِلِ وَ الجِرانِ

قال: و إنما عيّره بالكبر، و إنّما هو شاب حديث السّن... [129]

و من ذلك قول أبي خراش في قصيدة رثى بها زهير بن عجردة، و قد قتله جميل بن معمر يوم حنين مأسورا:

فَلَيسَ كَعَهْدِ الدّارِ يا أُمَّ مالِكٍ وَ لكنْ أَحاطَتْ بِالرِّقابِ السَّلاَسِلُ [130]

يقول : نحن من عهد الإسلام في مثل السّلاسل، و إلا فكنّا نقتل قاتله، وهو من قول الله عز وجل في بني إسرائيل : ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [131]، يريد بذلك الفرائض المانعة لهم من أشياء رخص فيها لأمة محمد[132].

ومن جيّد التّمثيل قول ضباعة بنت قرط، ترثي زوجها هشام بن المغيرة المخزومي:

إنَّ أَبا عُثمانَ لمْ أَنْسَـهُ وَإنَّ صَمْتاً عَن بُكاهُ لَحُوبُ

تُفاقَدُوا مِن مَعْشَرٍ! مَالَهُمْ أيَّ ذَنوبٍ صَوَّبوا في القَليبِ؟ [133]

---

[128] الأخطل : "الديوان " / شرح مهدي محمد ناصر الدين / دار الكتب العلمية / بيروت / ط2: 1994 / ص 345

[129] ابن رشيق : "العمدة "، ج1/ص 278

[130] ذكر هذا البيت ابن قتيبة : "تأويل مشكل القرآن "، ص 149، و ذكر معه بيتا آخر، ونسبهما إلى أبي ذؤيب الهذلي، و الصّحيح أنّهما لأبي خراش الهذلي، كما ذكر السّيد أحمد صقر (هامش ص 148). وينظر: "ديوان الهذليين "/دار الكتب المصرية/القاهرة/ط2: 1995/ج1/ص 150

[131] سورة الأعراف، الآية 157

[132] ابن رشيق: "العمدة "/ ج1/ ص278

[133] المصدر نفسه. ج1/ص 278

ومن كلام النبي صلّى الله عليه وسلم في التّمثيل، قوله: " الصّوم في الشّتاء الغنيمة الباردة "وقوله : "المؤمن في الدنيا ضيف، وما في يديه عارية، والضيف مرتحل والعارية مؤداة، ونعم الصهر القبر "[134].

ومن مليح أناشيد التمثيل قول ابن مقبل:

إنِّي أُقَيِّدُ بِالمأْثورِ راحِلَتِي　　　وَلا أُبالِي وَإِنْ كُنّا على سَفَرِ

فقوله:"أقيد بالمأثور" تمثيل بديع، والمأثور هو السيف الذي فيه أثرٌ، وهو الفرند [135].

و قال أبو الطيب[136] و ذكر نزارا :

فَأَقْرَحتِ المَقاوِدُ ذِفرَيَيْهَا　　　وَصَعَّرَ خَدَّها هَذا العِذارُ

ووصف رمحا فقال، وهو مليح متمكن جدّا:

يُغادِرُ كُلَّ مُلْتَفِتٍ إِلَيهِ　　　وَلَبَّتُهُ لِثَعْلَبِهِ وِ جارُ

و قال يخاطب سيف الدولة:

بَنُوكَعْبٍ وَما أَثَّرتَ فِيهِمْ　　　يَدٌ لم يُدْمُها إِلاّ السِّوارُ

بِها مِن قَطْعِهاأَلَمٌ ونَقْصٌ　　　وَفيها مِن جَلالَتِها افْتِخارُ[137]

[134] المصدر نفسه، ج1/ص 278، 279

[135] المصدر نفسه، ج1/ص 279، وابن مقبل: "الديوان "/تحقيق: عزة حسن/دار الشرق العربي/بيروت/ 1995/ ص 73

[136] الأبيات الأربعة كلّها للمتنبي من قصيدة واحدة مطلعها:

طوال قنا تطاعنها قصار　　　و قطرك في ندى ووغى بحار

ناصيف اليازجي : "العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب " / دار الجيل بيروت/ دار نظير عبود/ بدون تاريخ/ ج2/ ص757

[137] ابن رشيق : "العمدة "/ ج1/ ص 279-280.

والصورة في البيتين الأخيرين هي التشبيه.قال الدكتور أبو موسى: "...المراد أنهم يد لم يدمها إلا السوار، فأنت زينهم كما يكون السوار زينا لليد، وأنت الذي أوجعتهم وأدميتهم، كذلك السوار نفسه الذي يدمي اليد المزينة به، ويقول بعده:

بها مِن قَطعِها أَلَم و نَقصٌ   وفيها مِن جَلالَتِها افتخارُ

فأعاد المعنى في صورة شرح فيها وجه الشبه، والمهم أن التشبيه هنا بني على تشابك الكلمات وتآلفها، ومأخوذ مما بين الكلمات من علاقات "[138]

ولعل من الأدلة الواضحة على أنّ مفهوم "التّمثيل " عند ابن رشيق كان عاما، كما كان عند من سبقوه،أنّنا نجده في "باب الإشارة " يذكر أنّ من أنواع الإشارات: "الكناية و التمثيل "[139]، قال الدكتور طبانة: "والكناية والتمثيل يعدهما بن رشيق نوعا واحدا، وهما من أنواع الإشارات عنده"[140] وقد أورد على ذلك قول ابن مقبل -وكان جافيا في الدين- يبكي أه ل الجاهلية و هو مسلم فقي ل له مرة في ذلك ، فقال: [141]

وَما لِيَ لا أَبْكِي الدِّيـارَ وَ أَهْـلَهـا   وقدْ رادَها رُوَّادُ عَـكٍّ وَ حِمْيَرَا

وَجاءَ قَطَا الأَحْبابِ مِن كُلِّ جانِبٍ   فَوَقَّـعَ في أَعْطانِنا ثُمَّ طَيَّــرَا

قال: " فكنّى عمّا أحدثه الإسلام و مثّل كما ترى "[142]

[138] محمد أبوموسى : "التصوير البياني "/مكتبة وهبة/القاهرة/ط3: 1993/ص 69
[139] ابن رشيق : "العمدة "، ج1 /ص 305
[140] بدوي طبانة : "علم البيان "/دار الثقافة/بيروت/بدون تاريخ/ص 229
[141] ابن مقبل: "الديوان "، ص 109
[142] ابن رشيق: "العمدة "/ ج1/ ص 305.

ومن الملاحظات الدقيقة التي أبداها ابن رشيق في هذا الباب، ملاحظته أن ثمّت فرقا بين التّمثيل والاستعارة، وبين التشبيه، وإن كان التمثيل و الاستعارة أصلهما من التشبيه. قال: " والتمثيل والاستعارة من التشبيه، إلا أنّهما بغير أداته، وعلى غير أسلوبه "[143].

ثم تحدث بعد ذلك عن "المثل "، ذاكرا أنه راجع إلى ما ذكره، أي إلى "التمثيل والاستعارة " الّذين هما من التشبيه، و لكن بغير أداته، وعلى غير أسلوبه ، وأورد على ذلك قول طرفة في معلّقته:

سَتُبْدِي لَكَ الأَيّامُ ما كُنتَ جاهِلاً وَيأْتيكَ بِالأَخْبارِ مَن لم تُزَوِّدِ [144]

قال: " لأن معناه ستبدي لك الأيام كما أبدت لغيرك، و يأتيك بالأخبار من لم تزوّد كما جرت عادة الزّمان. . و تسمية "المثل " دالّة على ما قلته؛ لأن المثل والمثل: الشبيه و النّظير " [145]... ومن حديثه هذا عن المثل نفهم أيضا أنّ الباب الذي عقده بعد باب "التمثيل "؛وهو "باب المثل السّائر "[146]، إنما هو ملحق به، أفرده لإشباع الكلام فيه، و ذلك لشرفه عند العرب، وإكثارها منه في كلامها نظما و نثرا، ولوروده في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف في كثرة لافتة. قال الدكتور شوقي ضيف بعد حديثه عن التمثيل عند ابن رشيق: "ويضيف إليه فصلا عن المثل السائر، ومعروف أن البلاغيين يدخلونه في التمثيل أو الاستعارة التمثيلية " [147]وقد فصّل فيه ابن رشيق القول، مثّل له بأمثلة كثيرة، من القرآن الكريم، والحديث الشّريف، وكلام العرب نظما ونثرا. [148]

وقد صرّح بعض البلاغيين بهذا الأمر، ألا وهو إلحاق ما خرج مخرج المثل السّائر بالتّمثيل، ولعلّهم في ذلك يتأثّرون ابن رشيق في عمدته، ونذكر من هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر:

---

[143] المصدر نفسه، ج1/ ص 280.

[144] طرفة بن العبد: "الديوان "/شرح: مهدي محمد ناصر الدين /دار الكتب العلمية/بيروت/ط 3: 2002 /ص 29. والزوزني: "شرح المعلّقات السبع " / ص 103.

[145] ابن رشيق: "العمدة "/ ج1/ ص 280.

[146] المصدر نفسه، ج1/ص 280وما بعدها.

[147] ضيف: "البلاغة تطور وتاريخ "، ص 148

[148] ابن رشيق: "العمدة "/ ج1/ ص 280 وما بعدها.

ابن أبي الإصبع المصري (ت: 654هـ)، في كتابه "تحرير التّحبير في صناعة الشعر و النثر و بيان إعجاز القرآن "

و أبا محمد القاسم السّجلماسي (المتوفّى بعد سنة 700هـ. على الرّاجح)،

في كتابه "المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع ".

و مرعيّ بن يوسف الحنبليّ (ت: 1033هـ)، في كتابه: " القول البديع في علم البديع ".

و من نافلة القول أن نقول إنّ كلام هؤلاء الثلاثة في "التّمثيل ": حدّا واستشهادا لا يخرج عمّا كتبه قدامة و أبو هلال و الباقلاني و ابن رشيق، رغم تأخرهم[149].

[149]– ابن أبي الإصبع المصري: "تحرير التّحبير "/ تحقيق: حنفي محمد شرف / نشر لجنة إحياء التراث الإسلامي/ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية/ الجمهورية العربية المتحدة / ص 214 وما بعدها

- وأبو محمد القاسم السجلماسي: " المنزع البديع "/ تحقيق: علال الغازي / مكتبة المعارف/ الرّباط/ المغرب/ ط 1: 1980 / ص 244 وما بعدها

- ومرعّي بن يوسف: " القول البديع "/ تحقيق: محمد بن علي الصّامل / دار كنوز إشبيليا/ م. ع. السعودية/ ط 1: 2004 / ص 191وما بعدها

ابن سنان الخفّاجي

هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي (ت: 466هـ)، صاحب كتاب "سرّ الفصاحة " الذي يعد "من أروع ما أفرزته القريحة العربية في القرن الخامس الهجري، عصر عبد القاهر الجرجاني "[150]. وهو كتاب حافل " عني فيه بتفسير الفصاحة و ما يطوى فيها من الصوّر البيانية و البديعية "[151].

وقد تحدث ابن سنان عن "التمثيل "، وهو عنده من نعوت الفصاحة والبلاغة، قال : "... ومن نعوت الفصاحة و البلاغة: أن يراد معنى فيوضح بألفاظ تدلّ على معنى آخر، وذلك المعنى مثال للمعنى المقصود "[152]. والأمثلة التي أوردها كلّها تقدّمت عند من سبقوه، كبيت زهير، و ابن ميّادة، و كلمة يزيد بن الوليد... [153]

وعليه فالتمثيل عنده كما عند قدامة وابن رشيق يتطابق مع ما سمّاه أبو أحمد العسكريّ باسم المماثلة إذ يشمل الاستعارة التمثيلية، وبعض صور الكناية. . [154]

غير أنّ الأمر الذي يستحق التنويه، والوقوف عنده، هو حديثه عن فائدة "التّمثيل"، وأثره في أداء المعنى، وسبب حسنه...وعنده أنّ ذلك راجع إلى أمرين هما: "الإيجاز والإيضاح ". وكان قد تحدث عنهما - قبل حديثه عن التّمثيل- بشيء من التّفصيل، واعتبرهما من شروط الفصاحة والبلاغة... [155] قال ابن سنان: "...وسبب حسن هذا -أي التّمثيل- مع ما يكون فيه من الإيجاز، أن تمثيل المعنى يوضحه

---

[150] عبد العظيم المطعني: "من قضايا البلاغة و النقد "/ ص 15

[151] شوقي ضيف: "البلاغة تطور و تاريخ "/ ص 152

[152] ابن سنان الخفّاجي: "سر الفصاحة "/ تحقيق: علي فودة / مكتبة الخانجي/ القاهرة/ ط2: 1994 / ص 221

[153] المصدر نفسه، ص 221 وما بعدها

5 شوقي ضيف : "البلاغة تطور وتاريخ "، ص 157

[155]ابن سنان الخفاجي : "سرّ الفصاحة "، ص 194، و ص 209

ويخرجه إلى الحسّ والمشاهدة، و هذه فائدة التّمثيل في جميع العلوم، لأنّ المثال لابدّ من أن يكون أظهر من الممثّل، فالغرض بإيراده إيضاح المعنى وبيانه... "[156]

وفي تعليقه على الشّواهد التي ذكرها، نجده يبرز هذه الفائدة، فيقول مثلا بعد إيراده لبيت الرّماح بن ميّادة:

ألم تَـكُ في يُمنى يديكَ جعَلْتَني.....................

"... فعدل في العبارة عن ذلك إلى أنّي كنت في يمينك، فلا تجعلني في شمالك، لأن هذا المثال أظهر إلى الحسّ "[157]

وفي تعليقه على بيت زهيـر:

ومَن يَعصِ أطرافَ الزِّجاجِ.........................

يقول: " لأنه عدل عن قوله: ومن لم يطع باللّين أطاع بالعنف، إلى أن قال: ومن لم يطع زجاج الرّماح أطاع الأسنّة، وكان في هذا التّمثيل بيان المعنى وكشفه "[158]...

وهذه الطريقة في العرض، سار عليها ابن سنان في كتابه كله، فهو وإن كان قد عرض لتلك الفنون التي يعرفها البيانيّون وعلماء البديع، غير أنه "لم يعرضها عرضا قاعديا، وإنّما يعرضها عرضا أدبيا نقديا، يبين أثرها في صناعة البيان، وعرضا لنماذج جيدة منها وأخرى رديئة، وبيان العلة في استحسانها أو استهجانها بما يدل على العلم الصحيح، والذوق الأدبيّ المستقيم "[159]

[156] المصدر نفسه/ ص 221
[157] المصدر نفسه /ص 221
[158] المصدر نفسه/ص 221
[159] ابن سنان الخفاجي: "سر"الفصاحة "، ص 194، و ص 209

و مما يلتحق بمبحث "التّمثيل " في كتاب ابن سنان: حديثه في موضع آخر عن "الاستدلال بالتمثيل "، وقد ذكره على أنه من شروط صحّة المعاني [160]. " والاستدلال" هو الذي أطلق عليه أبو هلال اسم "الاستشهاد والاحتجاج "[161] . قال أبو هلال عنه: "...وهو أحسن ما يتعاطى من أجناس صنعة الشّعر... ومجراه مجرى التّذييل لتوليد المعنى؛وهو أن تأتي بمعنى ثم تؤكده بمعنى آخر يجري مجرى الاستشهاد على الأوّل والحجّة على صحّته..."[162].

والاستدلال بالتّمثيل عند ابن سنان، هو "أن يزيد في الكلام معنى يدلّ على صحته بذكر مثال له، نحو قول أبي العلاء:

لوِ اخْتَصرْتُمْ مِن الإحْسانِ زُرْتُكُمُ   وَالعَذْبُ يُهْجَرُ لِلإفْراطِ في الخَصَرِ [163]

فدلّ على أنّ الزّيادة فيما يطلب ربّما كانت سببا للامتناع منه، بتمثيل ذلك بالماء الذي لا يشرب لفرط برده، وإن كان البرد فيه مطلوبا محمودا، ومنه أيضا قول أبي تمّام:

أَخْرَجْتُموهُ بِكُرْهٍ مِن سَجِيَّتِهِ   وَالنّارُ قدْ تُنْتَضَى مِن ناضِرِ السَّلَمِ [164]

وقولـه:

وَ إِذا أَرادَ اللهُ نَشـرَ فَضيلَةٍ   طُوِيَتْ أَتـاحَ لَها لِسانَ حَسـودِ

لَولا اشْتِعَالُ النّارِ فيما جاوَرَتْ   ما كانَ يُعْرَفُ طِيبُ عَرْفِ العُودِ[165]

و قول أبي عبـادة:

---

[160] عبد العاطي غريب علام : "البلاغة العربية بين الناقدين الخالدين عبد القاهر الجرجاني و ابن سنان الخفّاجي "/دار الجيل/بيروت/ط1: 1993/ص 174

[161] عبد العزيز عتيق: " في تاريخ البلاغة العربية "/ ص 243 . وشوقي ضيف: "البلاغة تطور وتاريخ "، ص 158

[162] أبو هلال العسكري: "الصناعتين "/ ص 470

[163] أبو العلاء المعري: "سقط الزند "/دار صادر/بيروت/ 1957/ ص 56

[164] الخطيب التبريزي: "شرح ديوان أبي تمّام "/تحقيق محمد عبده عزّام /دار المعارف/ القاهرة/ط4 /ج3/ ص 189

[165] المصدر نفسه/ ج1/ ص 397

وَ يَحْسُنُ دَلُّها وَ المَوْتُ فيـهِ   وَقَدْ يُسْتَحْسَنُ السَّيفُ الصَّقيلُ ...[166] [167]

وهذه الأمثلة التي أوردها؛ تدخل في باب التّشبيه، و قد اصطلح المتأخرون على تسمية هذا النّوع "بالتشبيه الضّمني "... وهو: " تشبيه لا يوضع فيه المشبّه والمشبّه به في صورة من صور التّشبيه المعروفة بل يلمحان في التركيب. وهذا النّوع من التّشبيه يؤتى به ليفيد أنّ الحكم الذي أسند إلى المشبه ممكن "[168]... والتّشبيه الضّمني هو ضرب من التّشبيه التّمثيلي [169]. وعبد القاهر الجرجاني يعبّر عنه : "بالتّمثيل "الذي يجيء في أعقاب المعاني[170]، وقد تحدث عنه، وبين تأثيره في النفس، وسيأتي بيان ذلك في موضعه...

• وبعد هذا العرض المتسلسل لآراء طائفة من علماء البلاغة والعربية في "التّمثيل" لعل من الإنصاف الحديث-ولو بإيجاز-عن علمين كبيرين في مجال البلاغة العربية،لم يرد فيما كتبوه مصطلح "التمثيل "، ولكن وردت عندهم إشارات إليه أو إلى بلاغته وحسنه، لا شكّ في أن من جاءوا بعدهما استفادوا منها...نعني بهما: أبا عثمان عمرو بن بحر الجاحظ(ت 255هـ)، وأبا الحسن عليّ بن عيسى الرّماني(ت386هـ).

[166] أبو عبادة البحتري : "الديوان " / دار صادر/ دار بيروت/ بيروت/1962/ ج1/ ص 339

[167] ابن سنان الخفاجي: "سر الفصاحة "/ ص 259- 260

[168] ابن عبد الله شعيب: "علم البيان "، ص39

[169] حسني عبد الجليل يوسف: "التصوير البياني بين القدماء والمحدثين "/ ص 21

[170] عبد القاهر الجرجاني: "أسرار البلاغة "، ص 115 وما بعدها

ــ أما الجاحظ: فقد توقّف مرارا في "الحيوان "، وخاصّة في جزئيه الرّابع والخامس، يكشف عن الدّلالات الدّقيقة للآيات، وأشار في ثنايا ذلك لما فيها من استعارات وتمثيلات وتشبيهات، وكذلك صنع في تعليقه على بعض الأشعار... والاستعارة عنده من باب المجاز[171].

ومن ملاحظاته الدّقيقة، إشارته إلى "الاستعارة التّمثيلية "، وذلك في قوله: "ويذكرون نارا أخرى، وهي على طريق "المثل " لا على طريق الحقيقة، كقولهم في نار الحرب، قال ابن ميّادة:

يَدَاهُ يَدٌ تَنْهَلُّ بِالخيرِ وَالنَّـدا   وَأُخْرَى شَديدٌ بِالأَعادِي ضَريرُها

ناراهُ: نارٌ نارُ كَلٍّ مُدَفَّــعٍ   وأُخرَى يُصيبُ المجرِمينَ سَعيرُها..." [172]

ــ وأما الرّمّاني: فقد ذكر في رسالته القيّمة:"النكت في إعجاز القرآن": "التّشبيه "و جعله من أقسام البلاغة، وعرّفه بقوله: " التّشبيه هو العقد على أن أحد شيئين يسد مسد الآخر في حسّ أو عقل" [173]، و بذلك قسّم التّشبيه إلى حسّي و عقلي، وسمّى الأوّل: تشبيه حقيقة، والثاني: تشبيه بلاغة[174].

والتّشبيه البليغ عند الرّمّاني:" إخراج الأغمض إلى الأظهر، بأداة التشبيه، مع حسن التأليف" [175]، وهو يشير بذلك إلى تفضيل التّشبيه العقلي، وحسنه وفائدته؛ ولذلك نجده يقول بعد ذلك: "...وهذا الباب يتفاضل فيه الشّعراء، و تظهر فيه بلاغة البلغاء، و ذلك أنه يكسب الكلام بيانا عجيبا..."، ثم ذكر طبقاته في الحسن، وأنّه يأتي على وجوه:

- منها: إخراج ما لا تقع عليه الحاسّة إلى ما تقع عليه الحاسّة، كتشبيه المعدوم بالغائب.

---

[171] شوقي ضيف: "البلاغة تطور و تاريخ "/ ص 55

[172] عمرو بن بحر الجاحظ : "الحيوان " / تحقيق: عبد السّلام محمّد هارون / شركة مصطفى البابي الحلبي وأولاده/ ط 2: 1966 / ج5/ ص 133. وعبد العزيز عتيق: " في تاريخ البلاغة العربية "/ ص 102

[173] علي بن عيسى الرمّاني: "النكت في إعجاز القرآن "، ضمن : "ثلاث رسائل في إعجاز القرآن. "/ تحقيق: محمّد خلف الله، ومحمّد زغلول سلام / دار المعارف/ مصر/ بدون تاريخ / ص 74

[174] شوقي ضيف: "البلاغة تطور و تاريخ "/ ص 104

[175] الرمّاني: "النكت في إعجاز القرآن "... / ص 75

- ومنها: إخراج ما لم تجربه عادة إلى ما جرت به عادة، كتشبيه البعث بعد الموت بالاستيقاظ بعد النّوم.

- ومنها: إخراج ما لا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم بالبديهة، كتشبيه إعادة الأجسام بإعادة الكتب.

- ومنها: إخراج ما لا قوّة له في الصّفة إلى ما له قوة في الصّفة، كتشبيه ضياء السّراج بضياء النّهار.

ومثّل لتشبيه البلاغة بتشبيه أعمال الكفّار بالسّراب، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا﴾[176]، ومثّل له بآيات أخرى أكثرها ممّا أورده البلاغيّون في باب "التمثيل"[177].

وهذه التّفصيلات في التّشبيه، انتفع بها كلّ من جاءوا بعده مثل أبي هلال وعبد القاهر الجرجاني...[178]، بل إنّ هذا الأخير -كما سيأتي في موضعه- يرى أنّ التّشبيه لا يكون تمثيلا حتى يكون وجهه عقليّا، أما التّشبيهات الحسّية فليست من قبيل "التمثيل "... وكأنّه يستهدي بما أصّله الرّمّاني من قبله.

*ونذكر فيما يلي أهّم نتائج الفصل المستخلصة:

- **أولا:** تبيّن ممّا سبق عرضه من آراء و أقوال في التّمثيل، أنّ مفهوم هذا الفّن البلاغي عند السابقين كان عاما، يطلق على كثير من الصّور البيانية كالاستعارة والكناية والتّشبيه الاصطلاحي... ويظهر ذلك جلياً من خلال الشّواهد التي مثّلوا بها. و قد تبيّن ذلك ممّا سبق.

- **ثانيا:** تبيّن -أيضا- أنّ قدامة بن جعفر يكون أوّل من عدّ التّمثيل مخالفا للتشبيه، وأوّل من وضع له حدّا، ومثّل له بشواهد تقرّبه من الأفهام... وأوضح دليل على ذلك، تأثّر من جاءوا بعده بعمله؛ ذلك التأثر الشديد.

[176] سورة النّور، الآية 39

[177] الرمّاني: "النكت في إعجاز القرآن "... / ص 75 وما بعدها

[178] شوقي ضيف: "البلاغة تطور و تاريخ" / ص 105. و عبد العزيز عتيق : " في تاريخ البلاغة العربية " / ص 175

- ثالثا: تأثّر من تأثر قدامة في عمله، لم يمنع من أن تكون لهم بعض الملاحظات والزيادات والاستدراكات التي أثرت البحث:

- فمنهم من توسّع في إيراد الشّواهد، ونوّع فيها. فذكر الآيات القرآنية، والأحاديث، و الأمثال والأشعار المأثورة عن العرب... كابن رشيق، و أبي هلال.
- ومنهم من جعل "التمثيل " ضربا من الاستعارة، كالباقلاني و ابن رشيق. وهذا الأخير كان أكثر دقّة، عندما ذكر أنّ الاستعارة و التّمثيل من التّشبيه، غير أنّهما بغير أداته، و على غير أسلوبه.
- ومنهم من ركّز على فائدة التمثيل و بلاغته وحسنه، وعدّه من نعوت الفصاحة والبلاغة، كابن سنان في "سرّ الفصاحة "، ولاحظ ملاحظة دقيقة أن "التمثيل " قد يأتي في أعقاب المعاني، فيكون بمثابة إقامة الدّليل و الحجّة على صحّة ذلك المعنى، و لا يخفى ما لهذا من التأثير على النفس...

- رابعا: هناك من البلاغيين من لم يرد عنده مصطلح "التمثيل "، و لكنه أشار إليه إشارة دقيقة، تحت مسمّى "المثل " الذي هو عنده من المجاز، كما رأينا عند الجاحظ... أو أشار إليه بأمثلته، وبيان حسنه، حتى سمّاه تشبيه البلاغة، كما سبق عند الرّمّاني. و هذه الإشارات و الملاحظات؛ أفاد منها من جاءوا بعدهما.

- وبعد: فهذه الجهود المبذولة من أولئك الأعلام في تحقيق هذا الفّن البديع... قد ساهمت مساهمة كبيرة في تحديد معالمه، ويكفي أصحابها شرفا أنّ لهم فضل السبق إلى اكتشافه والكشف عن محاسنه... وهي جهود تستوجب الإجلال والتقدير.

الفصـل الثاني

تشبيه التمثيل حقيقته ومعناه

إن غرضنا من وراء عقد هذا الفصل الثاني: أن نجلي حقيقة هذا الفن البديع من فنون التصوير، وهذا الأمر يضطرنا إلى البحث عن دلالات مصطلح "التمثيل " في اللغة، وإلى بيان مذاهب علماء البلاغة فيه، ونعني بهم من جاءوا بعد أولئك الذين سبق عرض آرائهم، والذين خلصنا إلى أن مفهوم "التمثيل " عندهم كان عاما يشمل كثيرا من الصور البيانية... وعليه فسنحاول التماس مفهوم هذا الفن وحقيقته من بين آراء من جاءوا بعدهم، عسى أن نخرج من ذلك بما نرتضيه في هذه المسألة، ونظن أنه الصواب الذي ينبغي أن يمتثل .

كما سنحاول أن نبين بعض الأسرار التي يزخر بها هذا الفن البليغ، والتي هي مظاهر بلاغته... ولأن المقال يتضح بالمثال، فسنعرض لبعض أمثلته من الكلام البليغ، متبعين إياها بشرح يميط اللثام عن بعض أسرارها.

♦حقيقة تشبيه التمثيل ومعناه:

*التمثيل في اللغة:

لاشك أن تحديد الدلالة اللغوية لأي مصطلح، هو من أعظم الوسائل الموصلة إلى معرفة حقيقة ذلك المصطلح، والمعينة على فهم معناه، ووجود الفرق دائما بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي، لا ينفي أن ثمت ارتباطا بينهما، غاية ما في الأمر أن هذا الارتباط قد يكون ظاهرا أحيانا، وأحيانا أخرى يكون خفيا يحتاج إلى تدقيق نظر.

وبناء على هذا، فإن بيان حقيقة "التمثيل " والوقوف على معناه، يستدعي منا الرجوع إلى كتب متون اللغة، والبحث فيها عما تنطوي عليه تصرفات مادة (م ث ل) من معان ودلالات، والمقصود بتصرفات المادة المذكورة: مِثْل، ومَثَل، ومَثِيل...

وإذا رجعنا إلى كتب اللغة المعتبرة، وجدنا ما يلي:

–مِثْل: كلمة تسوية، يقال: هذا مِثْلُه ومَثَلُه، كما يقال: شِبْهه وشَبَهه بمعنى، والمِثْل:الشِّبْه. وقال عز وجل:﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾[179]، وقال الله تعالى :﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗا﴾[180]، أي شبه الذين كفروا شبه العنكبوت.

–والمَثَل والمَثِيل كالمِثْل، والجمع أَمْثَال... ويقال : لي مَثَلُه ومِثْله ومَثِيلُه ومُمَاثِلُه... ومَاثَلَ الشيءَ: شابَهَه.

[179] سورة الذاريات، الآية 23.

[180] سورة العنكبوت، الآية: 41.

-والطريقة المُثْلَى:الأشبهُ بالحقّ، قال تعالى حكاية عن فرعون: ﴿وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ﴾[181]، وأَمْثَلُهُم طريقة: أعدلهم وأشبههم بأهل الحق، قال تعالى: ﴿إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً﴾[182]، والمثيل: الفاضل، يقال: هذا أَمْثَلُ من هذا، أي أفضل وأدنى إلى الخير، وأماثل الناس: خيارهم. وفي الحديث: "أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأَمْثَلُ فالأَمْثَل "، أي: الأشرف فالأشرف، والأعلى فالأعلى في الرتبة والمنزلة.

-والمَثَل: ما يضرب به من الأمثال، وتمثَّل بالشيء: ضربه مثلاً، وفي التنزيل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓ﴾[183]. وهذا البيت مَثَلٌ نَتَمَثَّلُه عندنا ونتمثَّل به، ونَمْتَثله ونَمْتَثل به.

-والمَثَلُ: الحُجَّة.

-والمَثَل: بمعنى العبرة، ومنه قوله عز وجل :﴿ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ سَلَفٗا وَمَثَلٗا لِّلۡأٓخِرِينَ﴾[184]، أي عبرة يعتبر بها المتأخرون.

-والمِثالُ: المقدار، وهو من الشِّبْه، والمِثْلُ: ما جعل مِثالا، أي: مقدارا لغيره يحذى عليه... والمِثالُ القالَب الذي يقدر على مثله... والمِثال أيضا معروف، والجمع أَمْثِلَة و مُثُل... والمِثالُ: بمعنى الفراش.

-ومَثَّلَ الشيءَ بالشيء : سوَّاه و شبَّهه به، وجعله مِثْلَه وعلى مِثالِه.... ومَثَّلْتُ الشيء بالشيء إذا قدّرته على قدره، وتَمَثَّل به: تشبَّه به.

-والأمثالُ: أَرَضونَ ذات جبال يشبه بعضها بعضا، و لذلك سميت أمثالاً.

-وامْتَثَلَ أمرَه: احتذاه... وامْتَثل طريقتَه: اتَّبعها.

-والتَّمْثَالُ بالفتح: التّمثيل، وبالكسر: الصورة، ومَثَّلَهُ له تمثيلاً: صوّره له حتى كأنه ينظر إليه، وامْتَثَلَه هو تصوره.

[181] سورة طه، الآية: 63.
[182] سورة طه، الآية: 104.
[183] سورة الحج، الآية: 73.
[184] سورة الزخرف، الآية: 56.

-والمِثَالُ: القِصاص، وأَمْثَلَ الرجلَ: قتله بِقَوَدٍ، وامْتَثَلَ منه: اقتصَّ.

-وتَمَاثَل العليلُ: قارب البرء فصار أشبه بالصحيح.

-ومَثَلَ الشيءُ يَمْثُلُ مُثُولاً، ومَثُلَ: قام منتصبا.

-ومَثَلَ بالرجل يَمْثُلُ مَثْلاً ومُثْلَةً، ومَثَّلَ، كلاهما: نكّل به، وهي المَثُلَةُ والمُثْلَةُ، ومثَّلَ بالقتيل: جدعه، وأَمْثَلَهُ: جعله مُثْلَةً. والمَثُلَةُ: العقوبة، والجمع: المَثُلاتُ. قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ﴾[185].

-ومَثَلُ الشيءِ بفتحتين : صِفَتُهُ، ومنه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ﴾[186]، أي: صفتهم، وقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ﴾[187]، أي: صفتها، وقيل إنما معناه التمثيل... [188]

فهذه غالب المعاني التي وجدناها، ذكرناها هنا باختصار... وقد لخّص الدكتور: عبد العظيم المطعني القول في هذه المعاني التي تدل عليها تصريفات مادة (م ث ل)، فذكر أن معنى المَثَل والمِثْل والمَثِيل، في كتب اللغة، يكاد ينحصر في التنظير والتشبيه والفضل وقوة الظهور، وفي معنى "صفة" مضافة لما بعدها... فإذا زيد فيها تاء الافتعال كقولنا "امْتَثَل"، دلت على المطاوعة والاتّباع، وقد تزاد التاء مع حرف آخر كقولنا: "تماثَل" فتدل على بدء الأخذ في الشيء، كتماثَل المريض للشفاء، وقد تزاد الألف

---

[185] سورة الرعد، الآية 6.

[186] سورة الفتح، الآية: 29.

[187] سورة محمد، الآية: 15.

[188] - جمال الدين بن منظور: "لسان العرب"، ج11 / ص 610 وما بعدها.

- ومجد الدين الفيروزابادي: "القاموس المحيط "/الهيئة المصرية العامة للكتاب/مصر/1980/ج4/ ص 48، 49

- وإسماعيل بن حمّاد الجوهري : "الصحاح "/تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار/دار العلم للملايين/بيروت/ط4: 1990/ج4/ص 1816

- والحسن بن محمد الصغاني: "التكملة والذيل والصلة لكتاب تاج اللغة وصحاح العربية "/ تحقيق: إبراهيم إسماعيل الأبياري/دار الكتب/القاهرة/1970/ ج5/ ص 511

- وجار الله الزمخشري: "أساس البلاغة "/تحقيق: محمد باسل عيون السود/دار الكتب العلمية/بيروت/ط1: 1998/ج2/ ص 193

- وأحمد بن محمد الفيومي: "المصباح المنير "/مكتبة لبنان/بيروت/1987/ ص 215

بعد الثاء ومنه: تَمْثَال وتِمْثال، بمعنى التمثيل والصورة. والمُثُول بزيادة الواو: القيام والانتصاب، وجاء منها المِثال بمعنى الفراش. والأَمْثَل والمُثْلَى بمعنى الأفضل والفضلى، والمَثُل جمع مُثْلَة بمعنى العقوبة. والمَثْل بفتح فسكون: التنكيل بالقتيل بجدع أنفه وقطع أطرافه... [189]

ويرى الدكتور المطعني أن هذه المعاني على اختلافها ترجع إلى المقارنة بين شيئين، وأن هذا هو الغالب فيها، وما خرج عن هذا المعنى يمكن إرجاعه إليه عند التحقيق، وأشد المعاني خروجا عنه في الظاهر، هو كونه بمعنى العقوبة والتنكيل والفراش، وهذه يمكن-كما ذكر - حملها عليه. . وقد بين كيفية حملها عليه على النحو التالي:

-العقوبة البالغة تصبح ماثلة في الأذهان وتصور للناس للزجر والاتعاظ، ومما يؤيد هذا قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾[190] فسياق الكلام يدل على التعجيب من شأنهم حيث يستعجلون السيئة، وما فعله الله بأمثالهم ماثل لهم كأنهم يرونه، فكان حريا بهم أن يرتدعوا، وفاصلة الآية: "لشديد العقاب " تؤذن بهذا المعنى، وقد نقل الدكتور هنا تعليقا على هذه الآية نسبه لابن جني، وأحال على "مقاييس اللغة " لأحمد بن فارس-والظاهر أنه من كلام بن فارس، إذ لم ينسبه لأحد- وهو قوله: "... أي العقوبات التي تزجر عن مثل ما وقعت لأجله، و يحتمل أنها التي تنزل بالإنسان فتجعل مثالا ينزجر به ويرتدع غيره ". [191]

-والتنكيل بجدع الأنف وقصّ الأطراف، هو كذلك صورة بشعة تمثُل للنفس وتقر، فالصورة الذهنية في هاتين تماثل الصورة الحسية التي وقعت... [192]

[189] عبد العظيم المطعني: " من قضايا البلاغة و النقد "، ص 51.
[190] سورة الرعد، الاية: 6
[191] عبد العظيم المطعني: " من قضايا البلاغة و النقد "، ص 52. وأحمد بن فارس : "مقاييس اللغة "/تحقيق: عبد السلام هارون/دار الفكر/1979/ ج5/ ص 297
[192] عبد العظيم المطعني: " من قضايا البلاغة و النقد "، ص 52.

-وأما كونها بمعنى "الفراش "، فذكر الدكتور أنه تأوله تأويلا أسعده أن ابن جني- والظاهر أنه لابن فارس كما سبق- قد صرح به فقال: " والمثال: الفراش، وهو شيء يماثل ما تحته أو ما فوقه "[193]...

ليخلص بعد ذلك كله إلى أن معاني مادة (م ث ل) على اختلافها وكثرتها ترجع إلى أصل عام واحد، وإن شذ بعض المعاني عنه، فهو شذوذ من حيث الظاهر، وعند التحقيق تلتقي كل معانيها في التصوير والتجسيم والمماثلة.[194]

ولما رجعنا إلى كتاب ابن فارس : " مقاييس اللغة "، وجدناه يذكر أن (الميم والثاء واللام) أصل صحيح يدل على مناظرة الشيء للشيء "... ثم رأيناه يردّ– بعد ذلك- معاني تصريفات المادة (م ث ل) إلى هذا الأصل معللا لذلك... وهذا الأمر فعله مع كل أصل ذكره في كتابه، ليبين أن للغة العرب مقاييس وأصولا ترجع إليها مسائلها المتفرعة عنها –كما ذكر هو في مقدمة كتابه. ويكفي أن ننقل هنا شيئا من كلامه في مادة (م ث ل) حتى يتبين القارئ حقيقة هذا الأمر- قال ابن فارس: "(مثل): الميم والثاء واللام، أصل صحيح يدل على مناظرة الشيء للشيء... وهذا مِثْل هذا، أي نظيره. والمِثْلُ والمِثَالُ في معنى واحد. وربما قالوا: مثيل كشبيه. تقول العرب: أَمْثَلَ السلطان فلانا: قتله قوَدا، والمعنى: أنه فعل به مثل ما كان فعله. والمَثَلُ المِثْل أيضا، كشَبَه وشِبْه، والمثَل المضروب مأخوذ من هذا، لأنه يذكر مورّى به عن مثله في المعنى. وقولهم: مثَّلَ به، إذا نكَّل، وهو من هذا أيضا، لأن المعنى فيه أنه إذا نكّل به جعل ذلك مِثالاً لكل من صنع ذلك الصنيع أو أراد صنعه... ومَثَل الرجلُ قائما: انتصب، والمعنى ذاك، لأنه كأنه مثال نصب... "[195]

ونستطيع بعد هذا البيان أن نحدد الدلالة اللغوية لمصطلح "التمثيل "، وأنها ترجع إلى معان ثلاث، وهي: - التمثيل بمعنى "التصوير"

[193] المرجع نفسه، ص 52
[194] المرجع نفسه، ص 52
[195] أحمد ابن فارس: " مقاييس اللغة "، مادة (مثل)، ج5 / ص 296 و 297.

-والتمثيل بمعنى "التجسيم "، ويمكن أن نستعمل بدله مصطلح "التجسيد "، أو مصطلح "التشخيص ".

-والتمثيل بمعنى "المماثلة " أو "التشبيه "... وهذا هو المعنى الغالب عليه.

وظاهر كلام ابن فارس – ومثله في ذلك الدكتور المطعني- أن المعنيين الأوليين- وهما التصوير والتجسيم – لا يخرجان عن هذا المعنى الثالث، بل يرجعان إليه، فلا يبقى حينئذ إلا معنى واحد وهو "التشبيه "، أو"المماثلة "، أو"مناظرة الشيء للشيء ".

وعلى كل، فإن تحديد الدلالة اللغوية للتمثيل بالتصوير والتجسيم والمماثلة يفيدنا إفادة كبيرة في بيان حقيقة هذا الفن البلاغي البديع، والوقوف على الأسرار التي ينطوي عليها، وبالتالي معرفة أثره في بلاغة الكلام و أداء المعنى...

* التمثيل في الاصطلاح :

إن تحديد معنى "التمثيل " اصطلاحا وبيان حقيقته... يضطرنا إلى الحديث عن اختلاف مذاهب علماء البلاغة فيه، وبيان آرائهم، وما فيها من صواب، أوما وقع فيها من خطأ أو قصور، حتى نخرج من ذلك كله بما نظن أنه الصواب الذي ينبغي امتثاله.

1- اختلاف مذاهب العلماء في التمثيل:

لقد اختلفت مذاهب علماء البلاغة في معنى "التمثيل " الاصطلاحي، وتعددت آرائهم، وذلك بناء على اختلاف نظراتهم إلى هذا الفن البلاغي... ولكن هذه الآراء والمذاهب -وإن تعدّدت و تشعّبت- يمكننا ردها إلى مذهبين اثنين، وهما:

أ - مذهب من يجعل التمثيل والتشبيه بابا واحدا.

ب - مذهب من يفرق بينهما... وتحت هذا المذهب الثاني مذاهب.

أ - مذهب من يجعل التمثيل والتشبيه بابا واحدا:

وأصحاب هذا المذهب قد نظروا "إلى اتحاد الدلالة اللغوية لكل من التشبيه والتمثيل، فجعلوهما مترادفين، ولم يفرقوا بينهما، فكل تمثيل عندهم تشبيه، وكل تشبيه تمثيل "[196]. ومن أبرز أصحاب هذا المذهب : ضياء الدين ابن الأثير (ت: 637هـ)، وجار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت: 538هـ).

فأما ابن الأثير: فقد صرح في كتابه: " المثل السائر " بأن التشبيه والتمثيل شيء واحد، مستدلا على ما ذهب إليه اتحاد دلالتهما في أصل الوضع، وعائبا على علماء البيان ما ذهبوا إليه من التفرقة بينهما... قال ابن الأثير: " وجدت علماء البيان قد فرقوا بين التشبيه والتمثيل، وجعلوا لهذا بابا مفردا، ولهذا بابا مفردا، وهما شيء واحد لا فرق بينهما في أصل الوضع، يقال: شبهت هذا الشيء بهذا الشيء، كما يقال: مثلته به، وما أعلم كيف خفي ذلك على أولئك العلماء مع ظهوره ووضوحه... "[197]

قال علي الجندي معلقا على هذا الكلام: " وما عابه ابن الأثير ليس بعيب، واتحاد التشبيه والتمثيل في أصل الوضع لا يخفى على العلماء، ولكن المعروف أنه يوجد فرق دائما بين العرف اللغوي والاصطلاحي... "[198]

وأما الزمخشري : فلم يصرح بأن التمثيل والتشبيه شيء واحد، ولكن يفهم ذلك من كلامه في تفسيره :" الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل"، إذ نجده يعبر عن التشبيه بكلا المصطلحين، ويطلقهما من دون أن يفرق بينهما، والرجوع إلى تفسيراته لآي القرآن كفيل بتجلية هذه الحقيقة وإيضاحها.

فنحن نجده مثلا يقول في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾[199]: "وقد عد في مساوئ الآداب أن يجري ذكر الحمار في مجلس قوم من أولي المروءة، ومن العرب من لا يركب الحمار استنكافا وإن بلغت منه الرّجْلَةُ، فتشبيه الرافعين أصواتهم بالحمير،

---

[196] عبد الفتاح فيود : " دراسات بلاغية " / مؤسسة المختار / القاهرة / ط1 1998 / ص 148. وعلي الجندي : " فن التشبيه " / مكتبة الأنجلو المصرية / ط2: 1966 / ج1 / ص 32. وبدوي طبانة : "البيان العربي "، ص 244.

[197] ابن الأثير: المثل السائر "، ج1 / 373.

[198] علي الجندي: " فن التشبيه "، ج1 / 32.

[199] سورة لقمان، الآية 19.

وتمثيل أصواتهم بالنهاق، ثم إخلاء الكلام من لفظ التشبيه، وإخراجه مخرج الاستعارة، وأن جعلوا حميرا وصوتهم نهاقا، مبالغة شديدة في الذم والتهجين، وإفراط في التثبيط عن رفع الصوت والترغيب عنه، وتنبيه على أنه من كراهة الله بمكان..."[200]

قال الدكتور عبد الفتاح فيود معلقا على هذا الكلام: "فتشبيه الرافعين أصواتهم بالحمير تشبيه صريح، وكذا تشبيه أصواتهم بالنهاق، ولكن الزمخشري أطلق على الأول التشبيه، وسمى الثاني تمثيلا، وذلك لأنه لا يفرق بين التشبيه والتمثيل، بل جعلهما مترادفين".[201]

ويرى الدكتور شوقي ضيف أن الزمخشري – في حديثه عن التشبيه والتمثيل- إنما يصدر عن آراء عبد القاهر، ويردد كلامه، وقد يكون أهم شيء خالفه فيه تسمية التشبيه تمثيلا، وكأنه كان لا يجد فارقا بينهما في آي التنزيل... [202]

أما السبب في عدم تفرقة الزمخشري بين التشبيه والتمثيل، فيرى الدكتور شوقي لذلك سببا آخر – غير ما أسلفنا من أنه هو وابن الأثير يكونان قد نظرا إلى اتحاد الدلالة اللغوية لكل من التشبيه والتمثيل فجعلاهما مترادفين – حيث يقول: "...ولعل مرجع ذلك أن وجه الشبه في التشبيهات القرآنية، يغلب أن يكون عقليا، وكأنه جعل التشبيه الذي يكون فيه وجه الشبه عقليا تمثيلا، سواء أكان مركبا كما قال عبد القاهر، أو كان متعددا أو مفردا".[203]

وعلى كل فإذا كان الزمخشري وابن الأثير قد نظرا تلك النظرة، وجعلا التشبيه والتمثيل شيئا واحدا، فإن معظم علماء البلاغة يفرقون بينهما، وهم وإن اختلفت وجهة نظرهم في ذلك التفريق، فإنهم قد اعتمدوا على وجه الشبه المنتزع من الطرفين، وعولوا عليه في تحديد التمثيل والتفرقة بينه وبين التشبيه..."[204]

---

[200] جار الله الزمخشري : " الكشاف " / مكتبة العبيكان / الرياض / ط1: 1998 / تحقيق عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد عوض / ج5 / ص 18.
[201] عبد الفتاح فيود: "دراسات بلاغية "، ص 148.
[202] شوقي ضيف: " البلاغة تطور و تاريخ "، ص 238.
[203] شوقي ضيف: " البلاغة تطور و تاريخ "، ص 241.
[204] عبد الفتاح فيود: "دراسات بلاغية "، ص 149.

ب- مذهب من يفرق بينهما:

وعلى رأس أصحاب هذا المذهب: نجوم ثلاثة، تبوؤوا من سماء البلاغة العربية مكانا عليا، وأضاؤوا لمن جاءوا بعدهم طريقها فاهتدوا إليها، فهم بعد لا يصدرون - في الغالب – إلا عن آرائهم...ونعني بهم: أبا بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني (ت: 471هـ)، وأبا يعقوب يوسف بن محمد بن علي السكاكي(ت: 626هـ)، صاحب الكتاب المشهور: "مفتاح العلوم "، وجلال الدين محمد بن عبد الرحمن الخطيب القزويني (ت: 739هـ) صاحب الكتابين الذين صارا بعده عمدة المتأخرين: "تلخيص المفتاح "، و "الإيضاح "... ولهذا فسيكون التركيز على بيان آراء هؤلاء الثلاثة في "التمثيل "، وبدرجة أخص على آراء الأخيرين، أما عبد القاهر، فسيأتي بيان آرائه مفصلة في الفصل الثالث، ولذلك فسيكون الحديث عنه مقتضبا، وبالقدر الذي يعيننا على فهم آراء السكاكي والخطيب، ومقارنتها بما ذهب إليه...

- رأي عبد القاهر الجرجاني:

وخلاصة مذهبه في "التمثيل " والفرق بينه وبين التشبيه: -أن التشبيه: هو ما كان وجه الشبه فيه حسيا- أي مدركا بالحس- سواء أكان مفردا أم مركبا، كتشبيه الشيء إذا استدار بالكرة أو بالحلقة، وكتشبيه الثريا بعنقود الكرم المنور... وكذلك ما كان وجه الشبه فيه غرزيا، أي من جهة الغرائز والطباع، أي: عقليا حقيقيا، كتشبيه الرجل بالأسد في الشجاعة مثلا، فوجه الشبه هنا له وجود حقيقي في كلا الطرفين...

أما "التمثيل": فهو بعكسه، أي ما كان وجه الشبه فيه عقليا غير غرزي (غير حقيقي)، لا يحصل ولا يتم للمرء إلا بتأول وصرف عن الظاهر، سواء أكان مفردا أو مركبا، كما في تشبيه الحجة بالشمس في الظهور، فوجه الشبه في هذا المثال ليس له وجود حقيقي في كلتا الطرفين، فيحتاج للوقوف عليه إلى تأول وصرف عن الظاهر [205]

[205] عبد القاهر الجرجاني: " أسرار البلاغة "، ص 90 وما بعدها.

ويرى عبد القاهر أن التمثيل قد يكون مجازا، لمجيئك به على حد الاستعارة، كما في قولك للرجل يتردد في شيء بين فعله وتركه:" أراك تقدم رجلا و تأخر أخرى"[206].

- **رأي السكاكي:**

لقد بين السكاكي مذهبه في التمثيل، مميزا له عن التشبيه... وذلك بقوله: " واعلم أن التشبيه متى كان وجهه وصفا غير حقيقي، وكان منتزعا من عدة أمور، خصّ باسم التمثيل..." [207]. يؤخذ من هذا النص أن التمثيل عنده هو ما استجمع أمرين اثنين:

الأول: أن يكون وجهه وصفا غير حقيقي، أي: " عقليا غير حقيقي أي غير غرزي بأن لا يكون من الغرائز والطباع "[208]، وهو في هذا موافق لمذهب عبد القاهر.

والثاني: أن يكون وجهه منتزعا من عدة أمور، "وبذا يكون التمثيل عنده أخص من التمثيل عند عبد القاهر؛ لأن عبد القاهر يرى أن منه ما كان وجه الشبه فيه عقليا غير حقيقي وكان مفردا، والسكاكي لا يرى مثل هذا تمثيلا، بل يخصه بالمركبات العقلية "[209].

- ومن أمثلة التمثيل عند السكاكي : قول عبد الله بن المعتز[210]:

اصْبِرْ على مَضَض الحَسُو	دِ فإنَّ صَبْرَكَ قاتِلُهْ
فَالنّارُ تَأْكُـــــلُ نَفْسَها	إنْ لم تَجِدْ ما تأْكُلُهْ

قال: " فإن تشبيه الحسود المتروك مقاولته بالنار التي لا تمد بالحطب، فيسرع فيها الفناء، ليس إلا في أمر متوهم له، وهو ما تتوهم إذا لم تأخذ معه في المقاولة، عسى أن يتوصل بها إلى نفثة مصدور، من قيامه إذ ذاك مقام أن تمنعه ما يمد حياته ليسرع فيه الهلاك، وإنه كما ترى منتزع من عدة أمور ". [211]

---

[206] عبد القاهر الجرجاني: " دلائل الإعجاز "، ص 68-69.

[207] أبو يعقوب السكاكي:" مفتاح العلوم "/تحقيق: نعيم زرزور/دار الكتب العلمية/ بيروت/ ط2: 1987/ ص 348، وأحمد مطلوب:"البلاغة عند السكاكي"/مكتبة النهضة/ بغداد/ ط1: 1964/ص 222 و 326

[208] سيد محمود شيخون: "الإيضاح في التمثيل البلاغي "/ دار الكتاب الحديث/ القاهرة/ 2006 /ص 11.

[209] عبد الفتاح فيود: "دراسات بلاغية " ص 192.

[210] عبد الله بن المعتز: الديوان "/ طبعة دار صادر/ بيروت /ص 389. وفيه بدل قوله : " على مضض الحسود ": "على حسد الحسود ".

[211] السكاكي: "مفتاح العلوم " ص 346-347.

- ومن ذلك أيضا قول صالح بن عبد القدوس:

وَإِنّ مَنْ أَدَّبْتَهُ في الصِّبا كَالعودِ يُسْقَى الماءَ في غَرْسِهِ

حَتَّى تَراهُ مُورِقاً ناضِراً بَعْدَ الّذي أَبْصَرْتَ مِنْ يُبْسِهِ

فإن تشبيه المؤدب في صباه بالعود المسقي أوان الغرس، المونق بأوراقه ونضرته... ليس إلا فيما يلازم كونه: مهذب الأخلاق، مرضي السيرة، حميد الفعال لتأدية المطلوب بسبب التأديب المصادف وقته من تمام الميل إليه، وكمال استحسان حاله، وإنه كما ترى أمر تصوّريّ لا صفة حقيقية، وهو مع ذلك منتزع من عدة أمور... [212]

ومن ذلك من القرآن، قوله عز وجل: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ ﴾[213]، قال: فإن وجه الشبه: بين أحبار اليهود الذين كُلِّفوا العمل بما في التوراة ثم لم يعملوا بذلك... وبين الحمار الحامل للأسفار... وهو حرمان الانتفاع بما هو أبلغ شيء بالانتفاع به مع الكد والتعب في استصحابه، وليس بمشتبه كونه عائدا إلى التوهم، ومركبا من عدة معان "[214].

ويرى السكاكي أن التشبيه التمثيلي متى فشا استعماله على سبيل الاستعارة لا غير سمّي مَثَلاً، ولورود الأمثال على سبيل الاستعارة لا تغير... [215]. وكلامه هذا يدل على أنه يرى أن التمثيل قد يكون مجازا بالإتيان به على حد الاستعارة لا غير.

- رأي الخطيب القزويني :

أما الخطيب فإنه يرى أن التمثيل هو ما كان وجهه وصفا منتزعا من متعدد أمرين أو أمور... [216]. وغير التمثيل ما كان بخلاف ذلك[217].

---

[212] السكاكي: "مفتاح العلوم "، ص 347.
[213] سورة الجمعة الآية 5.
[214] السكاكي: " مفتاح العلوم "، ص 349.
[215] المصدر نفسه ص 349، و شوقي ضيف : " البلاغة تطور و تاريخ " ص 303.
[216] الخطيب القزويني : "الإيضاح في علوم البلاغة " /دار الكتب العلمية /بيروت/بدون تاريخ/ ص 253.
[217] المصدر نفسه، ص 255.

ومعنى كلامه هذا، أنه لا يشترط في التمثيل إلا شرطا واحد، وهو أن يكون وجه الشبه فيه مركبا، سواء أكان هذا الوجه عقليا أم حسيا، أي أنه: ينظر في تفريقه بين التشبيه والتمثيل إلى التركيب والإفراد، فما كان وجه الشبه فيه مفردا فهو تشبيه سواء أكان عقليا أم حسيا... وما كان وجه الشبه فيه مركبا فهو تمثيل، سواء أكان حسيا أو عقليا "[218].

وقد مثل القزويني للمركب العقلي بالأمثلة ذاتها التي أوردها السكاكي من قبله، كبيتي عبد الله بن المعتز وصالح بن عبد القدوس – وقد سبق ذكر أبياتهما- وكآية سورة البقرة وهي قوله تعالى: "﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَـٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾[219] ...[220].

أما المركب الحسي، فكقول بشار بن برد:

كَأَنّ مُثارَ النَّقْعِ فوقَ رُؤُوسِنا وَأَسْيافَنا لَيْلٌ تَهاوَى كَواكِبُهْ

فوجه الشبه هنا: " هو الهيئة الحاصلة من هُوِيّ أجرام مشرقة مستطيلة متناسبة المقدار، متفرقة في جوانب شيء مظلم "[221].

ويرى القزويني أيضا أن التمثيل قد يأتي على سبيل الاستعارة، وهو ما سماه المجاز المركب وعرفه بقوله: "... وأما المجاز المركب فهو اللفظ المركب المستعمل فيما شُبّه بمعناه الأصلي تشبيه التمثيل، للمبالغة في التشبيه... أي تشبيه إحدى صورتين منتزعتين من أمرين أو أمور أخرى " ثم تدخل المشبَّهة في جنس المشبَّه بها مبالغة في التشبيه، فتذكر بلفظها من غير تغيير بوجه من الوجوه... "[222]. ثم مثل له بأمثلة مختلفة، نكتفي منها هنا بذكر مثال واحد للإيضاح... وهو كلمة الوليد بن يزيد لما بويِعَ إلى مروان بن محمد، وقد بلغه أنه متوقف في البيعة له، فكتب إليه: "أما بعد: فإني أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى، فإذا

[218] عبد الفتاح فيود: "دراسات بلاغية " ص 194.
[219] سورة البقرة الآية 17
[220] القزويني: "الايضاح " ص 254 وما بعدها.
[221] الخطيب القزويني: " الإيضاح " ص 231.
[222] المصدر نفسه ص 312.

أتاك كتابي هذا، فاعتمد على أيهما شأت والسلام "فشبه صورة تردده في المبايعة بصورة تردد من قام يذهب في أمر فتارة يريد الذهاب فيقدم رجلا، وتارة لا يريد يؤخر أخرى... "[223]، ثم ذكر أمثلة أخرى ثم قال: "... وكلّ هذا يسمى التمثيل على سبيل الاستعارة وقد يسمى التمثيل مطلقا ومتى فشا استعماله كذلك سمي مثلا... "[224].

ومذهب الخطيب القزويني هذا في التمثيل، هو مذهب الجمهور من علماء البلاغة الذين جاءوا من بعده يرون رأيه و يقرّرون ما قرره.

ويبقى بعد هذا العرض والبيان لآراء أولئك الثلاثة في "التمثيل "... تقديم موازنة بينها توقف القارئ على أوجه الاتفاق والاختلاف...وذلك بأن يقال: [225]

- اتفقت تلك الآراء على أن التشبيه الذي يكون وجه الشبه فيه مفردا حسيا أو عقليا حقيقيا، فهو تشبيه صريح ظاهر وليس تمثيلا... واتّفقت أيضا على أن التشبيه الذي يكون وجه الشبه فيه مركبا عقليا فهو تمثيل وليس تشبيها صريحا...

- واختلفت فيما كان الوجه فيه مفردا عقليا غير حقيقي، فانفرد الإمام عبد القاهر بجعله تمثيلا، وخالفه السكاكي والخطيب فجعلاه من قبيل التشبيه الظاهر... كما اختلفت أيضا فيما كان الوجه فيه مركبا حسيا، فانفرد الخطيب القزويني بجعله تمثيلا، وخالفه الشيخان فجعلاه تشبيها صريحا ظاهرا...

2- حقيقة التمثيل:

يرى الدكتور محمود شيخون أننا إذا تأملنا في حديث عبد القاهر والسكاكي والخطيب القزويني عن التمثيل والتشبيه، "فإننا نراهم يعتمدون في إيضاح الفرق بينهما على احتياج الوجه إلى بذل الجهد والمشقة أوعدم احتياجه إلى ذلك... فإذا كان الطريق إليه سهلا ميسورا لوضوحه وقربه، سموا التشبيه المعقود عليه تشبيها غير تمثيلي". وإذا كان الطريق إليه وعرا لدقته وبعده، سموا التشبيه المعقود عليه "تشبيها تمثيليا "[226]

---

[223] المصدر نفسه ص 312 و ما بعدها.

[224] المصدر نفسه ص 315.

[225] عبد الفتاح فيود: "دراسات بلاغية " ص 194-195.

[226] محمود شيخون: "الإيضاح في التمثيل البلاغي "، ص 18.

وإذا كان الأمر كذلك، فقد لاحظ الدكتور شيخون أن تلك الآراء الثلاثة مع وجاهتها ورسوخ أقدام أصحابها في البلاغة العربية... فيها شيء من القصور:

- فعبد القاهر والسكاكي ينفيان التمثيل عما كان الوجه فيه حسيا مركبا مع أن هذا الوجه وإن كان مدركا بالحواس إلا أن انتزاعه من الطرفين ونظمه في هيئة مركبة يحتاج إلى إعمال فكر وإلطاف الروية كالوجه العقلي فينبغي أن يكون التشبيه المعقود عليه من قبيل التمثيل؛ لأنه مشارك للمركب العقلي في احتياجه إلى بذل الجهد والمشقة حتى يمكن تحصيله و العثور عليه... [227].

ويرى الدكتور عبد الفتاح فيود أيضا أن "التشبيهات التي يكون فيها وجه الشبه مركبا حسيا ينبغي أن تعد من قبيل التمثيل؛ لأن انتزاع ذلك الوجه المركب من طرفيه يحتاج إلى تأمل ولطف فكرة، فهو وإن كان مدركا بالحواس الظاهرة، إلا أن الخفاء فيه لا يقل عن الخفاء الموجود في وجه الشبه المفرد العقلي غير الحقيقي، ولذا لا يكون من الصواب أن تعد هذه التشبيهات المفردة تمثيلا وتجعل تلك المركبات الحسية من التشبيه الظاهر... [228].

والحق أن من تأمل أمثلة التشبيهات التي وجه الشبه فيها مركب حسي، تبين له صحة هذا الرأي ووجاهته، وفيما يلي بعض الأمثلة التي تؤيد صحة هذا المذهب:

فمن ذلك قول أبي الطيب المتنبي[229]:

يَهُزُّ الجيشُ حَوْلَكَ جانِبَيْهِ   كَما نَفَضَتْ جَناحَيْها العُقابُ

فوجه الشبه: تلك الحركة المزدوجة من تقدم وتقهقر، وهي صورة متعددة الجوانب، تظهر فيها حركة التقدم وحركة التراجع... [230]

ومن ذلك قول ابن المعتز يصف السماء بعد تقشع سحابة: [231]

كَأَنَّ سَمـــاءَنا لمَّاَ تَجَـــلَّتْ   خِلالَ نُجومِها عِنْدَ الصَّباحِ

[227] المرجع نفسه، ص 17.
[228] عبد الفتاح فيود: "دراسات بلاغية " ص 195.
[229] ناصيف اليازجي : "العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب "، ج2، ص 724.
[230] مختار عطية: " علم البيان و بلاغة التشبيه "/ دار الوفاء /الإسكندرية/ مصر/ 2004 /ص 48.
[231] ابن المعتز: "الديوان " ص 149.

رِياضُ بَنَفْسَجٍ خَضِلٍ نَداهُ   تَفَتَّحَ بَيْنَهُ نَــوْرُ الأَقاحِي

فالمشبّه صورة السماء والنجوم منثورة فيها وقت الصباح، والمشبه به صورة رياض من أزهار البنفسج تخللتها أزهار الأقاحي. ووجه الشبه هو الصورة الحاصلة من شيء أزرق انتشرت في أثنائه صور صغيرة بيضاء.[232]

وقال بعضهم يصف الشمس وقت طلوعها:

وَلاحَتِ الشَّمْسُ تَحْكِي عِندَ مَطْلَعِها   مِرْآةَ تِبْرٍ بَدَتْ فِي كَفِّ مُرْتَعِشِ

فقد شبه الشمس تحكي وقت طلوعها حين تكون حمراء لامعة مضطربة... بمرآة من ذهب تضطرب في كف ترتعش. ووجه الشبه هو: "الهيئة الحاصلة من وجود شيء أحمر لامع يهتز ويضطرب "[233]...

- أما الخطيب القزويني فقد "أطلق اسم التمثيل على ما كان الوجه فيه مركبا سواء أكان حسيا أم عقليا، وأهمل ما كان الوجه فيه مفردا عقليا غير غرزي، مع أن هذا الوجه لا يمكن تحصيله والوصول إليه إلا بعد كد الذهن وإرهاق الحس؛ لأنه يستلزم صرف اللفظ عن ظاهره، وإرادة مقتضاه ولازمه..." [234]، وكذلك أهمل السكاكي ما كان الوجه فيه مفردا عقليا غير غرزي، وذلك حينما حصر التمثيل في المركب العقلي.

ومن أمثلة التشبيه الذي وجه الشبه فيه مفرد عقلي غير غرزي، أي غير حقيقي، قولهم: حجة كالشمس في الظهور –وكلام ألفاظه كالعسل في الحلاوة، وكالماء في السلاسة، وكالنسيم في الرقة- وهم كالحلقة المفرغة لا يدري أين طرفها... وحينما نتأمل هذه الأمثلة، نجد أن وجه الشبه فيها ليس له وجود حقيقي في كلا الطرفين، ولا يحصل إلا بضرب من التأول، وصرف عن الظاهر كما يرى عبد القاهر، ولذلك جعلها من التمثيل[235].

---

[232] عبد العزيز عتيق: "علم البيان "، ص 59.
[233] ابن عبد الله شعيب: " علم البيان "، ص 34.
[234] محمود شيخون: " الإيضاح في التمثيل البلاغي "، ص 18.
[235] عبد القاهر الجرجاني: "أسرار البلاغة "، ص 92 وما بعدها.

ففي قولهم مثلا: "كلام ألفاظه كالعسل حلاوة، وكالماء في السلاسة، وكالنسيم في الرقة"... نجد أن الحلاوة والسلاسة والرقة، لا وجود لها في جانب المشبه، فنحن في حاجة إلى تأول نصل به إلى وجه شبه له تحقّق في كلا الطرفين، وهو بعد التأول: الاستطابة وميل النفس وحصول الراحة واللذة لها، وهذا الوجه يوجد في الكلام، حيث يحدث الكلام الجيد في النفس سرورا وأريحية، كما يوجد في العسل والماء والنسيم الذي يمتع النفس وتلذ به"[236]...

وبقي بعد هذا التماس حقيقة التمثيل من بين تلك الآراء المختلفة... ولعل الرأي الأمثل والصواب في هذه المسألة، هو ما خلص إليه الدكتور محمود شيخون – ومثله في ذلك الدكتور فيود – إذ يرى أنه ينبغي أن يكون الفرق بين التمثيل والتشبيه على النحو التالي:

- التمثيل: هو ما كان الوجه فيه دقيقا لا يدركه ولا يفطن إليه إلا أصحاب الأذواق السليمة، الذين ارتفعوا عن طبقة العامة- وهذا يتحقق في:
  - ما كان وجه الشبه فيه مفردا عقليا غير غرزي.
  - وما كان وجه الشبه فيه مركبا عقليا.
  - وما كان وجه الشبه فيه مركبا حسيا.
- والتشبيه: ما كان وجه الشبه فيه واضحا بينا لا يحتاج إلى إعمال فكر وإلطاف روية- وهذا يتحقق في:
  - ما كان وجه الشبه فيه مفردا حسيا
  - وما كان وجه الشبه فيه عقليا (والشأن في مثل هذا الوجه أن يكون مفردا)[237]

والتمثيل - زيادة على ما ذكر- هو أسلوب "قائم في الأساس على الإيحاء للمتلقي أن المشبه الذي هو في الغالب معنى ذهني مجرد...متمثّل ومتجسّد في المشبه به الذي هو في الغالب موج ود حسي،وعلى هذا

---

[236] عبد الفتاح فيود: "دراسات بلاغية " ص 154.

[237] محمود شيخون : "الإيضاح في التمثيل البلاغي "، ص 18-19 . وعبد الفتاح فيود: "دراسات بلاغية "، ص 195

يمكن القول: إن التمثيل هو كل صورة حسية يبتكرها الذهن أو يتخيلها للمعاني الذهنية المجـردة.."[238]، وقد كنا خلصنا من قبل إلى أن معاني التمثيل في اللغة ترجع إلى المماثلة و التجسيم و التصوير.

ويبقى بعد هذا أن نبحث مسألة مهمة، لها صلة وثيقة بالمسألة السابقة ، بل هي من تمام الكلام في حقيقة التمثيل، وهي:

كلمة "تمثيل": على ماذا تطلق ؟ أو: ما هي الصور التي يطلق عليها هذا المصطلح ؟

3- صور التمثيل:

مما سبق عرضه وبيانه من آراء مختلفة في "التمثيـل "... يتبين أن عبد القاهـر والسكاكي والخطيب القزويني – ومعه جمهور علماء البلاغة – يرون أن "التمثيل " قد يأتي في صورة"التشبيه " – وهو حقيقة لغوية، كما قد يأتي في صورة "الاستعارة"، أو على حدها – وهي مجاز لغوي...يدل على ذلك أقوالهم والأمثلة التي أوردوها.

وقد حقق الدكتور عبد العظيم المطعني القول في هذه المسألة، وتتبع معاني التمثيل وصوره وطرقه التي أتى عليها في القرآن الكريم والحديث النبوي، والتراث العربي شعره ونثره، ليخلص بعد ذلك كله إلى أن التمثيل يطلق على أربعة معان أو صور، وهي:[239]

- التشبيه التمثيلي؛ وهو حقيقة لغوية لم يصرح فيه بذكر المثل.

- التشبيه التمثيلي المصرح فيه بذكر المثل، على نحو ما هو من البيان القرآني والبيان النبوي، وهو كسابقه حقيقة لغوية، بيد أنه مثل خاص مضروب لحالة خاصة لا يتعداها لغيره، فمورده ومضربه واحد، كالأمثال المضروبة للمنافقين وللحياة الدنيا في القرآن الكريم، والأمثال المضروبة للعلم والهدى وللأنبياء، وللجليس الصالح وجليس السوء في البيان النبوي.

---

[238] ابن عبد الله شعيب: "علم البيان " ص 27.

[239] عبد العظيم المطعني: "من قضايا البلاغة و النقد "، ص: 99.

- المثل الذي له مورد ومضرب؛ المشبه بمضربه بمورده الذي له حظ من الشهرة.

- الاستعارة التمثيلية، وهي نوعان:

- تمثيل استعاري ليس مثلا، كقوله تعالى: ﴿وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَىٰٓ﴾[240]، وقوله تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[241].

- تمثيل على حد الاستعارة شبيه بالمثل وليس بمثل لعدم الشهرة، مثل: يخط على الماء، ويرقم في الهواء، ويطرق في حديد بارد. كلها بمعنى واحد، إذا كان يعمل بلا جدوى.

هذا ما ذكره الدكتور المطعني من المعاني والصور التي يطلق عليها مصطلح "التمثيل "... وهو إنما ذكرها على سبيل التفصيل بملاحظة بعض الفروق الدقيقة بينها، والناشئة بسبب الاستعمالات المختلفة... لكن على سبيل الإجمال يمكننا رد تلك الصور والمعاني إلى صورتين اثنتين، وهما:

أ - التشبيه التمثيلي؛ وهو حقيقة لغوية.

ب- الاستعارة التمثيلية؛ وهي مجاز لغوي.

وذلك لأن الصورتين الأوليين ترجعان إلى صورة واحدة؛ وهي التشبيه التمثيلي... والصورة الثالثة- وهي المثل- تدخل في الصورة الرابعة- وهي الاستعارة التمثيلية... ونحن إذا رجعنا إلى كتب البلاغة – وبخاصة المتأخرة منها؛ وجدنا الأمثلة المذكورة فيها للاستعارة التمثيلية؛ إما أمثالا سائرة مشتهرة، وإما أقوالا جرت مجرى الأمثال، واستعملت في غير ما وضعت له... والاستعارة التمثيلية كما عرفها المتأخرون:

---

[240] سورة النجم، الآية 34

[241] سورة الصف، الآية 10

"هي تركيب استعمل في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة، مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي" [242].

ومن أمثلتها[243] :

- قولهم لمن يحتال على حصول أمر خفي، و هو متستّر تحت أمر ظاهر: "لأمرٍ مَا جَدَعَ قُصَيْرٌ أَنْفَهُ"...وإجراء الاستعارة في هذا المثل: شُبِّهَت هيئة الرجل المتستر تحت أمر؛ ليحصل على أمر خفي يريده، بهيئة الرجل المسمى قُصَيْراً؛ حين جدع أنفه ليأخذ بثأر جذيمة من الزباء، بجامع الاحتيال في كل، واستعير الكلام الموضوع للمشبه به للمشبه على طريق الاستعارة التمثيلية.

- وكقول الشاعر:

مَتَى يَبلُغُ البُنْيانُ يوماً تَمَامَهُ   إذا كُنتَ تَبْنيهِ وَغَيْرُكَ يَهْدِمُ

وإجراء الاستعارة في هذا المثل أن يقال: شبهت حال المصلح يبدأ الإصلاح ثم يأتي غيره فيبطل عمله، بحال البنيان ينهض به، حتى إذا أوشك أن يتم جاء من يهدمه، والجامع هو الحالة الحاصلة من عدم الوصول إلى الغاية لوجود ما يفسد على الساعي سعيه، ثم حذف المشبه واستعير التركيب الدال على المشبه به للمشبه...

* تشبيه التمثيل:

1- مفهومه:

"تشبيه التمثيل" أو"التشبيه التمثيلي"، هو إحدى صورتين يطلق عليهما مصطلح"التمثيل"، وهما:

أ-التشبيه التمثيلي؛ وهو حقيقة لغوية.

ب-الاستعارة التمثيلية؛ وهي مجاز لغوي.

[242] ابن عبد الله شعيب: "علم البيان "، ص: 164، والسيد أحمد الهاشمي: "جواهر البلاغة "/ دار الكتب العلمية/ بيروت/ ط 4، 2009 / ص: 195.

[243] السيد أحمد الهاشمي: "جواهر البلاغة "، ص: 195-197.

ومنه نعلم أن تشبيه التمثيل أخص من "التمثيل "، وقد مضى تعريف التمثيل بأنه: "ما كان فيه الوجه فيه دقيقا لا يدركه و لا يفطن إليه إلا أصحاب الأذواق السليمة، الذين ارتفعوا عن الطبقة العامة "، و بأنه أسلوبه قائم في الأساس على الإيحاء للمتلقي أن المشبه الذي هو في الغالبية معنى ذهني مجرد، متمثل و متجسد في المشبه به الذي هو في الغالب موجود حسي... وعلى هذا يكون معنى "تشبيه التمثيل ": أنه التشبيه الذي تلك صفته... ويتحقق كما أسلفنا في:

أ- ما كان وجه الشبه فيه مفردا عقليا غير غرزي، كقولهم: "حجة كالشمس في الظهور ".

ب- ما كان وجه الشبه فيه مركبا عقليا، كقول ابن المعتز:

اصبِرْ على مَضَضِ الحَسُو   دِ فإِنَّ صبرَكَ قاتِلُهْ

فالنّارُ تأكُـــلُ نفسَـها   إنْ لم تجِدْ ما تأكُلُهْ

ج- ما كان وجه الشبه فيه مركبا حسيا، كقول بشار:

كأنَّ مُثارَ النَّقْعِ فوقَ رُؤُوسِنا   وَأسيافَنا لَيلٌ تَهاوَى كَواكِبُهْ

وجمهور البلاغيين يقصرون تشبيه التمثيل على ما كان وجه الشبه فيه مركبا حسيا كان أو عقليا، ويهملون ما كان فيه الوجه مفردا عقليا غير غرزي – وقد تقدم بيان أن هذا هو مذهب الخطيب القزويني – ولهذا فهم يعرفونه بقولهم: "هو ما كان وجه الشبه فيه صورة منتزعة من متعدد أمرين أو أمور "... فاشترطوا فيه تركيب الوجه لا غير، سواء أكان هذا الوجه حسيا أم عقليا، وسواء في المركب الحسي، أكان طرفا التشبيه – أي المشبه والمشبه به – مفردان أم مركبان أم مختلفان...

-فالمركب الحسي الذي طرفاه مفردان، كقول أُحَيْحَةَ بنِ الجُلاحِ، أو قَيسِ بن الأَسْلَتِ:

وَقَدْ لاحَ في الصُّبْحِ الثُّرَيّا كَما تَرَى   كَعُنْقودِ مُلاحِيَّةٍ حِينَ نَوَّرا

فالوجه هو الهيئة الحاصلة من تقارن الصور البيض، الصغار المقادير في مرأى العين وإن كانت كبارا في الحقيقة، على الكيفية المخصوصة، منضمة إلى المقدار المخصوص... والطرفان المفردان هما: الثريا والعنقود.

- والذي طرفاه مركبان، فكقول بشار السابق.

- والذي طرفاه مختلفان – أي أحداهما مفرد والأخر مركب – فكقول بعضهم في النيلوفر، وهو نبات ينبت في المياه المستنقعة، ويزهر على سطحها:

كُلُّنَا باسِطُ اليَدِ   نَحْوَ نَيْلوفَرٍ نَدِي

كَدَبابِيسِ عَسْجَدِ   قُضْبُهَا مِن زَبَرْجَدِ [244]

وقد خلط بعض البلاغيين بين التشبيه المركب، والتشبيه المتعدد... والصحيح أن بينهما فرقا؛ "لأن المركب ينظر فيه إلى الهيئة الحاصلة المنتزعة من أمور متعددة لا يتم التشبيه إلا بها، بينما ينظر في التشبيه المتعدد إلى كل تشبيه على حدة، فالصورة في المركب عامة، وفي المتعدد جزئية " [245]. فاجتماع الأمرين أو الأمور في التشبيه المتعدد ليس على جهة المزج والتركيب، بل على جهة الاستقلال والانفراد...ففي قول امرئ القيس: [246]

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْباً وَيابِساً   لَدَى وَكْرِها العُنَّابُ وَالحَشَفُ البالِي

244 الخطيب القزويني: "الايضاح "، ص: 223، 231، 232، و على الجندي: "فن التشبيه "، ج1/ ص: 142-144.
245 عبد الفتاح عثمان: "التشبيه و الكناية "، ص 48.
246 الأعلم الشنتمري: "أشعار الشعراء الستة الجاهليين "/دار الفكر/ بيروت/ ص 52

لم تمتزج قلوب الطير الرطبة بقلوبها اليابسة، ولا العناب بالحشف البالي، بل ظل كل جزء من أجزاء التشبيه منفردا مستقلا عن الآخر، حيث شبهت قلوب الطير الرطبة بالعناب، وقلوبها اليابسة بالحشف البالي، على جهة الانفراد والاستقلال، لا على جهة المزج والتركيب... [247].

أما الصورة في التشبيه المركب؛ فهي صورة قد اتحدت وامتزجت فيها الأمور، فنتج عن هذا الامتزاج صورة خاصة غير التي كانت لكل جزء في حالة الإفراد. [248]

2- مواقعه:

ذكر بعض البلاغيين أن تشبيه التمثيل يجيء في الكلام على وجهين أو في موقعين:

-الموقع الأول: أن يكون في مفتتح الكلام، فيكون قياسيا موضحا، وبرهانا مصاحبا، وهو كثير جدا في القرآن... [249] ومن أمثلته:

قوله تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ ﴾[250]، وقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾[251].

ومن الشعر قول أحمد شوقي[252]:

---

[247] عبد الفتاح فيود: "دراسات بلاغية "، ص: 172.
[248] المرجع نفسه، ص 169.
[249] السيدأحمد الهاشمي: "جواهر البلاغة "، دار الفكر، بيروت، 2003، ص: 231.
[250] سورة البقرة، الآية: 261.
[251] سورة البقرة: الآية: 171.

مَثَلُ القَــوْمِ نَسُوا تارِيخَهُمْ ... كَلَقِيــطٍ عَيَّ في النّاسِ انْتِسـاباَ

أَوْ كَمَغْـلوبٍ على ذَاكِـرةٍ ... يَشْتَكِي مِنْ صِلَةِ الماضِي انْقِباضَا

-الموقع الثاني: أن يجيء بعد تمام المعاني، لإيضاحها و تقريرها، فيشبه البرهان الذي تثبت به الدعوى... [253] ومن ذلك قول بعضهم [254]:

لا يَنْزِلُ المجدُ إلاَّ في مَنازِلِناَ ... كَالنَّوْمِ لَيسَ لَهُ مَأْوًى سِوَى المُقَلِ

وقول البحتري يمدح ابن نَيْبَخْتَ [255]:

دَانٍ على أَيْدِي العُفاةِ وَشاسِعٌ ... عَنْ كُلِّ نِدٍّ في النَّدَى وَضَرِيبِ

كَالبَدْرِ أَفْرَطَ في العُلُوِّ وَضَوْءُهُ ... لِلْعُصْبَةِ السَّـارِينَ ج ـدٌّ قَرِيبِ

ويدخل في هذا الباب – أي التشبيه التمثيلي الذي يجيء بعد تمام المعاني – ما يسمى "بالتشبيه الضمني "؛ وهو "تشبيه لا يوضع فيه المشبه والمشبه به في صورة من صور التشبيه المعروفة، بل يلمحان في التركيب، وهذا النوع من التشبيه يؤتى به ليفيد أن الحكم الذي أسند إلى المشبه ممكن " [256]، وبيان ذلك أن الكاتب أو الشاعر قد يلجأ عند التعبير عن بعض أفكاره إلى أسلوب يوحي بالتشبيه من غير أن يصرح به في صورة من صوره المعروفة... ومن بواعث ذلك: التفنن في أساليب التعبير، والنزوع إلى الابتكار والتجديد، وإقامة البرهان على الحكم المراد إسناده إلى المشبه، والرغبة في إخفاء معالم التشبيه، لأنه كلما خفي ودقّ كان أبلغ في النفس... [257].

[252] علي الجندي: "فن التشبيه "، ج2، ص 27.
[253] السيد أحمد الهاشمي، "جواهر البلاغة "، ص: 231.
[254] المرجع نفسه، ص: 231.
[255] البحتري: "الديوان "، ج1/ ص 220.
[256] ابن عبد الله شعيب: "علم البيان "، ص: 39.
[257] عبد العزيز عتيق: "علم البيان "، ص: 69.

ومن أمثلة التشبيه الضمني، قول أبي فراس الحمداني[258]:

سَيَذْكُرُني قَوْمِي إذاَ جَدَّ جِدُّهُمْ   وَفِي اللَّيْلةِ الظَّلْماءِ يُفْتَقَدُ البَدْرُ

فهو هنا يريد أن يقول: إن قومه سيذكرونه عند اشتداد الخطوب والأهوال عليهم ويطلبونه فلا يجدونه، ولا عجب في ذلك؛ لأن البدر يفتقد ويطلب عند اشتداد الظلام... فهذا الكلام يوحي بأنه تضمن تشبيها غير مصرح به، فالشاعر يشبه ضمنا حاله وقد ذكره قومه وطلبوه فلم يجدوه عندما أَلَمّت بهم الخطوب، بحال البدر عند اشتداد الظلام، فهو لم يصرح بهذا التشبيه، وإنما أورده في جملة مستقلة وضمنه هذا المعنى في صورة برهان... [259].

ومن ذلك أيضا قول أبي تمام[260]:

وَإِذَا أرادَ اللهُ نَشْـرَ فَضيـلَةٍ   طُوِيَتْ أَتاحَ لَها لِسانَ حَسـودِ

لَوْلا اشْتِعالُ النّارِ فِيما جاوَرَتْ   مَا كانَ يُعْرَفُ طِيبُ عَرْفِ العُودِ

فالشاعر هنا قرر حقيقة هي أن الله إذا أراد لفضيلة عند امرئ أن تنتشر، قيض حسودا يرددها بين الناس، ثم انتقل مباشرة إلى ذكر صورة تمثيلية دون أن يصرح بأن تلك الصورة تمثيل لما ذكره، لكن المتلقي يدرك ذلك ضمنا، وعلى هذا يكون التشبيه الضمني ضربا من التشبيه التمثيلي... [261].

• ولتشبيه التمثيل – أيضا – مواقع عديدة باعتبار المعاني التي ينتظمها، والأغراض التي يتناولها... قال علي الجندي:"والتمثيل ينتظم شتى المعاني، ويلبس مختلف الصور الأدبية "، وذكر من ذلك: الوصف، والغزل، والمدح، والهجاء، والرثاء، والفخر، والاستعطاف، والتحسر والتوجع، والعتاب والشكوى، والعزاء والتسلية، والاحتجاج، والاعتذار، والحكم والعظات والنصائح – وهذه الثلاثة الاخيرة – حسبه

---

[258] أبو فراس الحمداني: "الديوان "/ دار بيروت/ بيروت/ 1986/ ص161

[259] عبد العزيز عتيق: "علم البيان "، ص 70.

[260] الخطيب التبريزي: "شرح ديوان ابي تمام "/ ج1/ ص 397.

[261] حسني عبد الجليل يوسف: "التصوير البياني بين القدماء و المحدثين "، ص: 21.

– هي أوسع الأبواب وأليقها بالتمثيل... وقد أورد لهذه الصور المختلفة أمثلة كثيرة [262]، نكتفي هنا بذكر بعض منها من دون تعرض لشرح:

- فمن ذلك "الغزل "كقول أبي الطيب[263]:

مَتى تَزُرْ قَوْمَ مَنْ تَهْوَى زِيارَتَها لا يُتْحِفوكَ بِغَيرِ البِيضِ وَ الأَسَلِ

وَالهَجْــرُ أَقْتَلُ لِي مِمَّا أُراقِبُهُ أَنا الغَريـقُ فَما خَوْفِي مِنَ البَلَلِ

- و"المدح "، كقول البحتري[264]:

مُتَهَلِّلٍ طَلْقٍ إذا وَعَدَ الغِنَى بِالبِشْرِ أَتْبَعَ بِشْـرَهُ بِالنّائِلِ

كَالمُزْنِ إنْ سَطَعَت لَوامِعُ بَرْقِهِ أَجْلَتْ لَنا عَن دِيمَةٍ أَوْ وَابِلِ

- و"الهجاء "كقول أبي تمام[265]:

كَمْ نِعْمَــةٍ لله كانتْ عِنـــــدَهُ فَكأَنَّــها في غُرْبَــةٍ وَإِسارِ

كُسِيَتْ سَبائِبَ لُؤْمِهِ فَتَضاءَلَتْ كَتَضاؤُلِ الحَسْناءِ في الأَطْمارِ

- و"الفخر "، كقول عبد المطلب بن هاشم:

لَنا نُفوسٌ لِنَيْلِ المجْدِ عاشِقَةٌ وَلَوْ تَسَلَّتْ أَسَلْناها علَى الأَسَلِ

لا يَنْزِلُ المجدُ إلاّ في مَنازِلِنا كَالنَّومِ ليسَ لهُ مَأْوَى سِوَى المُقَلِ

[262] علي الجندي: "فن التشبيه "، ج2 /ص 28-37.
[263] ناصيف اليازجي: "العرف الطيب في شرح ديوان المتنبي "، ج2، ص: 651.
[264] أبو عبادة البحتري: "الديوان "/ تحقيق و شرح: حسن كامل الصيرفي/ دار المعارف/ مصر/ ط3: 1963/ ج3/ ص 1647-1648.
[265] الخطيب التبريزي: "شرح ديوان أبي تمام "، ج2/ ص 198.

- و"الحكم والعظات والنصائح "، كقول ابن الرومي[266] :

لا تَلْحَ مَن يَبْكي شَبِيبَتَهُ   إلاّ إذا لم يَبْـ ــكِها بِدَمِ
لَسْنا نَراها حَقَّ رُؤْيَتِها   إلاّ أَوانَ الشَّيْـبِ وَالهَرَمِ
كَالشَّمْسِ لا تَبْدو فَضِيلَتُها   حتىَّ تَغَشَّى الأَرْضُ بِالظُّلَمَ

- وقوله[267] :

لا تُكْثِرَنَّ مَلامـــةَ العُشّـاقِ   فَكَفاهُمُ بِالوَجْـدِ وَ الإِشْفاقِ
إِنَّ البَلاءَ يُطاقُ غَيرَ مُضاعَفٍ   فَإِذا تَضاعَفَ كانَ غيرَ مُطاقِ
لا تُطْفِئَـــنَّ جَوًى بِلَــوْمٍ إِنَّهُ   كَالرِّيحِ تُغْرِي النّارَ بِالإِحْراقِ

• كما يأتي التمثيل في موقع آخر، أو صورة أخرى، تخالف كل صورة رأيناها ومثلنا لها من قبل، صورة يجعل الشاعر الأصل فيها فرع والفرع أصلا، زيادة في المبالغة، وهو ما اصطلح عليه البلاغيون المتأخرون "بالتشبيه المقلوب "...

والتشبيه المقلوب : "هو الذي يجعل فيه المشبّه الذي هو الناقص بالأصالة مشبّها به، ويجعل المشبه به الذي هو الكامل بالأصالة مشبها، وإذا جعلت كذلك صار بمقتضى أصل التركيب التشبيه الناقص كاملا وهو المشبه به لفظا... أو بعبارة أخرى هو: جعل المشبه مشبها به، بادعاء أن وجه الشبه فيه أقوى وأتم وأظهر "[268].

[266] ابن الرومي : "الديوان " / شرح: أحمد حسن بسج / دار الكتب العلمية/ بيروت/ ط 3: 2002 / ج3/ ص 318.
[267] ابن الرومي : "الديوان "، ج2/ ص 471-472، مع ملاحظة أن البيت الثالث منفصل عن الأولين بأبيات.
[268] ابن عبد الله شعيب: "علم البيان "، ص: 36.

ويسميه أبو الفتح عثمان بن جني في كتابه "الخصائص " : "غلبة الفروع على الأصول "... وقد عرض له ابن الأثير في كتابه "المثل السائر" ، وسماه : "الطرد والعكس"... والعلوي صاحب "الطراز" يسميه "التشبيه المنعكس "... [269].

وعن سبب قلب التشبيه يقول علي الجندي : "إن المتفننين في طرق الأداء من أرباب الصناعة البيانية لم يقفوا عند التشبيه العادي؛ لأنهم يرون أن هذه المبالغة المعتدلة أقل من أن تشبع رغبتهم فيما يتوخونه من أغراض الكلام في الغزل والمديح والرثاء وإليها، فكان أن سلكوا لذلك طريق القلب في التشبيه توصلا لهذه الغاية المنشودة "[270].

ومن أمثلة هذا النوع من التشبيه؛ ذلك البيت السائر لمحمد بن وهيب يمدح المأمون:

وَبَدَا الصَّبـاحُ كَأَنَّ غُرَّتَهُ   وَجْهُ الخَلِيفَةِ حِينَ يُمْتَدَحُ [271]

ونحو قول ابن المعتز[272]:

وَلاحَ ضَوْءُ هِلالٍ كادَ يَفْضَحُنا   مِثْلُ القُلامَةِ إذْ قُصَّتْ مِنَ الظُّفُرِ

فالجاري في الاطراد، هو تشبيه القلامة من الظفر بالهلال في نحولها، وتقوسها واعوجاجها فعكس ابن المعتز ذلك، وشبه الهلال بالقلامة مبالغة ودخولا وإغراقا من جهته في التشبيه... [273].

- وأما العكس والقلب في التمثيل فنحو قول القاضي التنوخي[274]:

---

[269] ابن عبد الله شعيب: "علم البيان "، ص: 36-37، باختصار. وينظر أبو الفتح عثمان بن جني: "الخصائص "/ تحقيق: محمد علي النجار /دار الكتب المصرية/ المكتبة العلمية/ مصر/ ط 2: 1952/ج1/ ص 300، وضياء الدين بن الأثير: "المثل السائر "/ تحقيق: أحمد الحوفي وبدوي طبانة/ دار نهضة مصر/ القاهرة/ ط 2/بدون تاريخ/ ج2/ ص 156، ويحيى بن حمزة العلوي: "الطراز "/ طبعة المكتبة العصرية/ ج1، ص: 158.

[270] علي الجندي: "فن التشبيه "، ج1، ص: 282.

[271] المرجع نفسه، ج1، ص: 294.

[272] ابن المعتز: "الديوان "، ص: 247.

[273] العلوي: "الطراز "، ج1، ص: 159.

[274] عبد القاهر الجرجاني: "أسرار البلاغة "، ص 225.

وَكَأَنَّ النُّجـــومَ بَيْنَ دُجاهَا سُنَنٌ لاحَ بَيْنَهُ ـــنَّ ابْتِدَاعُ

فشبه النجوم في ظلمة الظلام مع نورها، بالسنن الواضحة التي هي كالأنوار، توسط بينها بدع كسواد الليل في ظلمتها، فالسنة في هداها كالنور، والبدعة في جهلها بمنزلة الظلمة[275].

وكقول بعضهم:

كَأَنَّ انْتِضاءَ البدرِ مِن تَحْتِ غَيْمَةٍ نَجاءٌ مِنَ البأْســـاءِ بَعدَ وُقُوعِ

وذلك أن العادة أن يشبه المتخلص من البأساء بالبدر الذي ينحسر عنه الغمام [276].

ولعبد القاهر الجرجاني رأي في "التمثيل " الذي يأتي في صورة التشبيه المقلوب، حيث يشترط لجواز العكس في تشبيه التمثيل أن يكون ذلك على سبيل التخييل، كما هو الشأن في البيتين الأخيرين الذين مثلنا بهما، وسيأتي بيان ذلك في موضعه من الفصل الثالث من بحثنا هذا.

[275] العلوي: "الطراز "، ج1، ص: 146.
[276] عبد القاهر الجرجاني: "أسرار البلاغة "، ص 229.

♦ بلاغة تشبيه التمثيل وأسراره:

* بلاغته وأسراره:

لقد قررنا من قبل أن التشبيهات أنواع مختلفة، وأنها ليست في درجة واحدة من البلاغة وقوة التأثير... فبعضها أبلغ من بعض، وأقوى تأثيرا... وقد ذكر الكثير من البلاغيين أن التشبيه كلما كان بعيدا خفيا عن الأذهان، يحتاج في استخراج وجهه إلى تدقيق نظر، وإعمال فكر، كان أبلغ وأشد تأثيرا... ومن ثم كان تشبيه التمثيل أبلغ من غيره، وذلك "لما في وجهه من التفصيل الذي يحتاج إلى إمعان فكر، وتدقيق نظر، وهو أعظم أثرا في المعاني، يرفع قدرها، ويضاعف قواها في تحريك النفوس لها..."[277]

وفي بيان أثر التمثيل في تصوير المعاني وتشخيصها، يقول الزمخشري: "ولضرب العرب الأمثال واستحضار العلماء المثل والنظائر شأن ليس بالخفي في إبراز خبيّات المعاني، ورفع الأستار عن الحقائق، حتى تريك المتخيل في صورة المتحقق، والمتوهم في معرض المتيقن، والغائب كأنه مشاهد، وفيه تبكيت للخصم الألد، وقمع لسورة الجامح الأبي، ولأمر ما أكثر الله في كتابه المبين، وفي سائر كتبه أمثاله، وفشت في كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلام الأنبياء والحكماء، قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾[278].ومن سور الإنجيل سورة الأمثال..."[279].

ويقول أيضا: "... لأن التمثيل مما يكشف المعاني ويوضحها، لأنه بمنزلة التصوير والتشكيل لها، ألا ترى كيف صور الشرك بالصورة المشوهة "[280]، ويقول أيضا عند قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ

---

[277] السيد أحمد الهاشمي: "جواهر البلاغة "/ طبعة دار الفكر/ ص 230.
[278] سورة العنكبوت، الآية 43
[279] الزمخشري: "الكشاف "، ج 1، ص: 190-191. وشهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي: "روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني "/ دار احياء التراث العربي/ بيروت/ ج1/ ص 163.
[280] الزمخشري: "الكشاف "، ج4/ص 576-577، ومحمد أبو موسى: "البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري... "، ص: 404.

وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ﴾:"... أي: لا يعقل صحتها وحسنها وفائدتها إلا هم، لأن الأمثال والتشبيهات إنما هي الطرق إلى المعاني المحتجبة في الأستار حيث تبرزها وتكشف عنها وتصورها للأفهام..."[281].

" والقرآن الكريم وهو المثل الأعلى في بلاغة الأسلوب، وروعة البيان، وكمال الأداء اللغوي... قد اتخذ من الصور التشبيهية وسيلته التي يخاطب بها الناس، ويقرب لهم المعاني البعيدة، ويوضح لهم الصور الذهنية المجردة، ويضرب لهم الأمثال بالواقع المحسوس المشاهد الذي يخضع لمعطيات الحواس الخمس الظاهرة، وذلك مبالغة في الإقناع، وتثبيتا للمعنى في النفوس... "[282].

والتمثيل يكثر في القرآن الكريم كثرة لافتة، وكثرته تعود إلى ما لهذا النوع من التشبيه من وقع في النفس، وأثر فيها وتأثير عليها، وإلى ما تنطوي عليه صوره من اللطائف والأسرار... [283].

وقد نقل السيوطي عن بعضهم قوله: "ضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور كثيرة: التذكير، والوعظ، والحث، والزجر، والاعتبار، والتقرير، وتقريب المراد للعقل، وتصويره بصورة المحسوس، فإن الأمثال تصور المعاني بصورة الأشخاص، لأنها أثبت في الأذهان لاستعانة الذهن فيها بالحواس، ومن ثم كان الغرض من المثل تشبيه الخفي بالجلي، والغائب بالشاهد... "[284].

وإذاً، فـ "ليس هذا التأثير الذي ينفح به التمثيل، والذي يعمل عمل السحر في كياننا فيهزه من الأعماق، قد جاء اعتباطا، أو هو مما يقع فلتات، بل له علل وأسباب متينة الصلة بالنفوس الإنسانية، فإذا استأذن عليها فتحت له أبوابها على مصاريعها، وتلقته بالقبول والبشاشة والارتياح، كما تتلقى شيئا سارا مبهجا يلذها موقعه، ويخفّ عليها محمله، ذلك أن النفوس تنفر بطبعها من الغموض، وتفر من اللبس،

[281] الزمخشري : "الكشاف "، ج4/ ص 550، ومحمد أبو موسى: "البلاغة القرآنية... "، ص: 403.

[282] عبد الفتاح عثمان: "التشبيه الكناية "، ص: 80.

[283] ابن عبد الله شعيب: "علم البيان "، ص: 30.

[284] جلال الدين السيوطي: "الإتقان في علوم القرآن "/ تحقيق: شعيب الأرنؤوط/ مؤسسة الرسالة ناشرون/ بيروت/ ط 1: 2008/ ص 671. .

وتململ من مواقف الحيرة والشك والبلبلة، وتبادر إلى المروق من الظلمة إلى النور، ومن الشبهة إلى اليقين أني وجدت السبيل إلى ذلك... "[285].

• والتمثيل يشتمل على كثير من الأسرار، هي مظاهر بلاغته، وأسباب حسنه، وقد أورد الدكتور محمود شيخون بعضا منها، فذكر:

-قوة التأثير، وإبراز المعقول في صورة مجسمة ، وإلباس المعنوي ثوب المحسوس ، و الإيجاز ، والإيضاح ، و إصابة المعنى ، و رفع الأستار عن الحقائق ، و تقريب المراد للعقول، و عرضه في صورة مشوقة[286].

ومن أسراره أيضا:

- التقريب بين النائيين، والتأليف بين المتقابلين، وبثّ الوحدة في الصور المتفرقة... [287]كأن يجعل الشيء قريبا بعيدا، كقول البحتري:

دانٍ على أَيْدي العُفاةِ وَشاسِعٌ　　عَنْ كُلِّ نِدٍّ في النَّدَى وَضَريبِ

كَالبدرِ أَفْرَطَ في العُلُوِّ وَضَوْءُهُ　　لِلْعُصبةِ السّارِينَ جِدُّ قَريبِ [288]

وكأن يقرن بين أمرين متباعدين، كما في قول ابن المعتز[289]:

وَكَأَنَّ البرْقَ مُصْحَـــفُ قارٍ　　فَانْطِباقاً مَـــرَّةً وَانْفِتاحاً

وقد أعجب النقاد بهذا البيت وأشادوا به كثيرا، فقد قرن أمرين متباعدين، هما البرق حين ينتشر وينقبض، بالمصحف حين يأخذ القارئ في فتحه وإغلاقه، وكل منها يختلف جنسا ومكانا عن الآخر،

[285] علي الجندي: "فن التشبيه "، ج2، ص: 22.
[286] محمود شيخون: "الإيضاح في التمثيل البلاغي "، ص: 22-23.
[287] علي الجندي: "فن التشبيه "، ج2، ص: 23.
[288] ابن عبد الله شعيب: "علم البيان "، ص: 61، و البحتري: "الديوان "، ج1/ ص 220.
[289] ابن المعتز: "الديوان "، ص 141.

ويضاف إلى ذلك خصوصية أخرى حققها ابن المعتز، وهي أنه أوقع التشبيه على الحركة مجردة عن غيرها... [290].

- ومنها: تقرير المعاني في النفوس، و"تأييد المعنى الثابت "[291]، نحو قول أبي العتاهية[292]:

تَرْجُو النَّجاةَ وَلم تَسْلُكْ مَسالِكَها   إنّ السّفينةَ لا تَجْرِي علَى اليَبَسِ

المشبه حال من يرجو النجاة من عذاب الآخرة، ولا يسلك مسالك النجاة، والمشبه به حال السفينة التي تحاول الجري على الأرض اليابسة. [293]، وقوله: "إنّ السفينة لا تجري على اليبس "، هو تأييد للمعنى الثابت بقوله: "ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها "، ومقرِّر له... إلى غير ذلك من الأسرار التي ينطوي عليها هذا الفن البديع، والتي يقف عليها من تأمل شواهده وأمثلته، وعرف أغراض المتكلم من إيراد المعنى على صورته، ولا يتأتى ذلك إلا لذي ذوق سليم، وبصر بوجوه الكلام وأساليبه.

غير أن هذه الأسرار، ليست كلها مما يختص به تشبيه التمثيل، فإن منها ما يشترك فيه مع التشبيه غير التمثيلي بأنواعه، كالإيجاز والإيضاح مثلا، ومنها أسرار يشترك مع غيره في أصلها كالتأثير، ولكنه يفضلها في القوة، فهو أقوى وأشد تأثيرا في النفوس، يعمل فيها عمل السحر، فهو: "أمضى أداة، وأسرع نفاذا، لحسن تأتيه، ولطف سحره، ودقة مسلكه في التقريب بين النائيين، والتأليف بين المتقابلين، وبثّ الوحدة في الصور المتفرقة، وصبّ المعاني المتعقّلة والمتخيلة والمتوهمة في قوالب الشخوص الحية، والأشباح النابضة المتحركة... "[294].

---

[290] ابن عبد الله شعيب: "علم البيان "، ص 61.
[291] السيد الهاشمي: "جواهر البلاغة "/ طبعة دار الفكر/ ص 232.
[292] أبو العتاهية: "الديوان "/ دار بيروت/ بيروت/ 1986/ ص 230.
[293] عبد العزيز عتيق: "علم البيان "، ص 71.
[294] علي الجندي: "فن التشبيه "، ج2/ ص 23.

ولأن المقال يتضح بالمثال، يحسن بعد هذا الكلام المجمل عن بلاغة تشبيه التمثيل وأسراره، إيراد بعض النماذج من الكلام البليغ، تتجلى فيها تلك الأسرار... والتمثيل كـ "التمثيل "، من شأنه أن يخرج النفس من الخفاء إلى الجلاء، ومن الإجمال إلى البيان.

* نماذج تطبيقية من الكلام البليغ:

1- من القرآن الكريم:

• **المثال الأول:** قوله تعالى–"يصف حال المنافقين، وما هم فيه من حيرة واضطراب وتخبط "[295]:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ١٦ مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ ١٧ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ١٨ أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩ يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾[296].

وقد تضمنت هذه الآيات تمثيلين :

الأول: في قوله تعالى: "أولئك الذين اشتروا الضلالة " إلى قوله: "فهم لا يرجعون". قال الطاهر بن عاشور– مبينا الأسرار التي جيء بهذا المثل والذي بعده لأجلها - : "أعقبت تفاصيل صفاتهم بتصوير مجموعها في صورة واحدة، بتشبيه حالهم بهيئة محسوسة، وهذه طريقة تشبيه التمثيل، إلحاقا لتلك الأحوال المعقولة بالأشياء المحسوسة، لأن النفس إلى المحسوس أميل، وإتماما للبيان بجمع المتفرقات في السمع، المطالة في اللفظ في صورة واحدة، لأن للإجمال بعد التفصيل وقعا من نفوس السامعين، وتقريرا لجميع ما

[295] محمد أبو موسى: "التصوير البياني "، ص: 84.

[296] سورة البقرة: الآيات: 16-20.

تقدم في الذهن بصورة تخالف ما صور سالفا؛ لأن تجدد الصورة عند النفس أحب من تكررها... واستدلالا على ما يتضمنه مجموع تلك الصفات من سوء الحالة وخيبة السعي وفساد العاقبة، فمن فوائد التشبيه قصد تفظيع المشبه، وتقريبا لما في أحوالهم في الدين من التضاد والتخالف، بين ظاهر جميل وباطن قبيح... بصفة حال عجيبة من أحوال العالم، فإن من فائدة التشبيه إظهار إمكان المشبه، وتنظير غرائبه بمثلها في المشبه به... "[297].

وتقدير هذا المثل أن الله سبحتنه شبههم في اشترائهم الضلالة بالهدى، وصيرورتهم بعد البصيرة إلى العمى، بمن استوقد نارا، فلما أضاءت ما حوله وانتفع بها وأبصر بها ما عن يمينه وشماله وتأنس بها، فبينا هو كذلك إذ طفئت ناره، وصار في ظلام شديد لا يبصر ولا يهتدي، وهو مع هذا أصم لا يسمع، أبكم لا ينطق، أعمى لو كان ضياء لما أبصر، فلهذا لا يرجع إلى ما كان عليه قبل ذلك[298].

وقال الدكتور أبو موسى: "... صورهم في حال من جد في طلب النار ليتبين بها موضع قدمه، فلما حصل عليها انطفأت، ويبقى كما كان قبلها في ظلمته وضلالته. حيرة المنافق وما في دواخله من قلق واضطراب، صار مرئيا في هذه الصورة، صورة هذا الكائن في ليل بهيم شديد الظلمة لا يدري ما يحيط به، و لا يأمن أن يكون قد كمنت حوله أهوال ماحقه، أو أن يضع قدمه في مهلكة، ثم اجتهد في أن يحصل على ما يضيء له ما حوله فلما أضاءت وأذهبت بعض مخاوفه، واستشعر شيئا من الأمن ذهبت النار، وعاد إلى حالته الأولى من الحيرة والتبدد..."[299].

وقد تضمن الأسلوب القرآني في هذه الآيات فوائد بديعة، زادت "التمثيل " روعة، وكسته جلالا وجمالا، منها :

---

[297] محمد الطاهر بن عاشور: "التحرير والتنوير "/ الدار التونسية للنشر/ تونس/ 1984/ ج1/ ص 302.

[298] أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي : "تفسير القرآن العظيم "/ دار الثقافة/ الجزائر/ ط1: 1990/ ج1/ ص 56-57.

[299] محمد أبو موسى: "التصوير البياني "، ص: 85.

قوله: "ذهب الله بنورهم "، ولم يقل بنارهم، فإن النار فيها الإضاءة والإحراق، فذهب الله بما فيها من الإضاءة، وأبقى عليهم ما فيها من الإحراق، وتركهم في ظلمات لا يبصرون، فهذا حال من أبصر ثم عمي، وعرف ثم أنكر، ودخل في الإسلام ثم فارقه بقلبه، فهو لا يرجع إليه، ولهذا قال : "فهم لا يرجعون "... [300].

وقال: "ذهب الله بنورهم " ولم يقل: "بضوئهم "... قال الزمخشري: "قلت: ذكر النور أبلغ؛ لأن الضوء فيه دلالة على الزيادة، فلو قيل: ذهب الله بضوئهم، لأوهم الذهاب بالزيادة، وبقاء ما يسمى نورا، والغرض إزالة النور عنهم رأسا، وطمسه أصلا، ألا ترى كيف ذكر عقيبه: "وتركهم في ظلمات "، والظلمة: عبارة عن عدم النور وانطماسه، وكيف جمعها، وكيف نكرها، وكيف أتبعها ما يدل على أنها ظلمة مبهمة، لا يتراءى فيها شبحان، وهو قوله: "لا يبصرون " "[301].

وكلمة "لمّا " في قوله: "فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم "، فيها معنى المفاجأة والسرعة، كأنه ذهب بالنور فور وجوده، فالأمل ما إن بزغ وشعّ إلا وقد ابتلعته ظلمة اليأس، وذهب بددا... [302] إلى غير ذلك.

ومن بدائع هذا التمثيل أنه مع ما فيه من تركيب الهيأة المشبه بها، ومقابلتها للهيأة المركبة من حالهم، هو قابل لتحليله بتشبيهات مفردة لكل جزء من هيأة أحوالهم، بجزء مفرد من الهيأة المشبه بها، فشبه استماعهم القرآن باستيقاد النار، ويتضمن تشبيه القرآن في إرشاد الناس إلى الخير والحق بالنار في إضاءة المسالك للسالكين، وشبه رجوعهم إلى كفرهم بذهاب نور النار، وشبه كفرهم بالظلمات، ويشبهون بقوم انقطع إبصارهم. [303]

[300] محمد بن أبي بكر بن القيم الدمشقي: - "بدائع التفسير "/ تحقيق: يسري السيد محمد/ دار ابن الجوزي/ م.ع. السعودية/ ط 1: 1427هـ/ ج1/ ص 99 – و "الأمثال في القرآن الكريم "/ تحقيق: سعيد محمد نمر الخطيب / دار المعرفة/ بيروت/ 1981 / ص177.
[301] الزمخشري: "الكشاف "، ج1/ ص 193، وابن القيم : "بدائع التفسير "، ج1/ ص 99.
[302] محمد أبو موسى: "التصوير البياني "، ص 85.
[303] محمد الطاهر بن عاشور: "التحرير والتنوير "، ج1/ ص313.

أما التمثيل الثاني: فقوله تعالى: "أوكصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق "، إلى قوله: "إن الله على كل شيء قدير "، قال الزمخشري: "... ثنى الله سبحانه في شأنهم بتمثيل آخر، ليكون كشفا لحالهم بعد كشف، وإيضاحا غب إيضاح، وكما يجب على البليغ في مظان الإجمال والإيجاز أن يجمل ويوجز، فكذلك الواجب عليه في موارد التفصيل والإشباع أن يفصل ويشبع..."[304].

وفي هذا التمثيل تصوير للمنافقين "في صورة من أحاط بهم صيب من السماء فيه من تكاثفه ظلمات تحجب رؤية العين، ثم فيه رعد وبرق يبعثان الهول ويثيران المخاوف، حتى يكاد القوم يرون الموت بأعينهم، ويسمعون دمدمته المصعقة، وحسيسه الراعب، فيجعلون أصابعهم في آذانهم حتى يبعدوا عن أسماعهم هذا الهول الذي لا يطاق، ومع أن البرق ليس كالبرق الذي يراه الإنسان، ويستطيع أن يحدق فيه، فقد كانوا ينتهزون فرصة لمعه ليخطوا خطوة من محيط الرعب الجاثم على أرواحهم، هذا القلق المفزوع الذي تراه ماثلا في هذه الجماعة، يريك دواخل المنافقين، وتمزق قلوبهم، وتوزع خواطرهم "[305].

وفي قوله تعالى : "كلما أضاء لهم مشوا فيه "، ذكر "كلما "في جانب الإضاءة، و"إذا "في جانب الإظلام؛ لدلالة "كلما "على حرصهم على المشي، وأنهم يترصدون الإضاءة فلا يفيتون زمنا من أزمان حصولها، ليتبينوا الطريق في سيرهم لشدة الظلمة "[306].

وهذا التشبيه الثاني حين تقارنه بالتشبيه الأول، تجد أن الحيرة هناك حيرة في ظلمة حاجزة، والتركيز هناك على الظلمة التي تجعل القوم يحرصون على الضوء فيستوقدون نارا... والحيرة هنا في ظلمة أيضا، ولكنها لم تكن وحدها التي تشكل الموقف، وإنما هناك صيب منصب، ورعد كالصواعق، وبرق يخطف الأبصار، فالموقف ممتلئ بالرعب والهول، بإضافة هذه العناصر الجديدة، والتي جعلت الظلمة عامرة بموجبات الموت التي لا يحول بينهم وبينها إلا مشيئة الله التي شاءت استمرارهم أحياء كاملي الحواس،

[304] الزمخشري: "الكشاف "، ج1، ص: 198.
[305] محمد ابو موسى: "التصوير البياني "، ص: 87.
[306] الطاهر ابن عاشور: "التحرير والتنوير "، ج1/ ص 321، ومحمد أبو موسى: "التصوير البياني "، ص 87.

ليعانوا هول الموقف بحس صحيح... [307]، وقد ذهب الزمخشري إلى أن التمثيل الثاني أبلغ من الأول؛ لأنه أدل على فرط الحيرة وشدة الأمر وفظاعته، ولذلك أخر، وهم يتدرجون في نحو هذا من الأهون إلى الأغلظ... [308].

• **المثال الثاني:** قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [309].

قال الفخر الرازي: " "اعلم انه تعالى لما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ [310] أتبعه بهذا المثل العجيب الذي ضربه لمن يبغي في الأرض ويغتر بالدنيا، ويشتد تمسّكه بها، ويقوى إعراضه عن أمر الآخرة والتأهب لها، فقال : " إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض..." [311]، ففي هذا المثل: "بيان شأن الحياة الدنيا، وقصر مدة التمتع فيها... أي: إنما حالها في سرعة تقضيها، وانصرام نعيمها بعد إقبالها، واغترار الناس بها "كماء أنزلناه من السماء فاختلط

[307] محمد أبو موسى: "التصوير البياني "، ص: 88-89.
[308] الزمخشري: "الكشاف "، ج1، ص: 201-202.
[309] سورة يونس: الآية: 24.
[310] سورة يونس: الآية: 23
[311] فخر الدين الرازي: "التفسير الكبير " أو "مفاتيح الغيب "/ دار الفكر/ بيروت/ ط1: 1981/ج17/ ص 76

به..." "[312]. قال الزمخشري: "شبهت حال الدنيا في سرعة تقضيها، وانقراض نعيمها بعد الإقبال... بحال نبات الأرض في جفافه وذهابه حطاما بعدما التف وتكاثف، وزين الأرض بخضرته ورفيفه..."[313].

وقوله: "أخذت الأرض زخرفها وازينت "، جملة بديعة اللفظ، جعلت الأرض آخذة زخرفها متزينة، وذلك على جهة التمثيل بالعروس إذا أخذت الثياب الفاخرة من كل لون، فاكتست وتزينت بأنواع الحلي، فاستعير الأخذ – وهو التناول باليد؛ لاشتمال نبات الأرض على بهجة ونضارة وأثواب مختلفة، واستعير لتلك البهجة والنضارة والألوان المختلفة لفظ "الزخرف "، وهو الذهب لما كان من الأشياء البهجة المنظر السارة للنفوس، و"ازيّنت " أي: بنباتها وما أودع فيه من الحبوب والثمار والأزهار... [314]

• **المثال الثالث:**قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾[315]

لما ذكر تعالى حالة الإيمان والمؤمنين وتنويره قلوبهم، ووصفهم بما وصفهم من الأعمال النافعة في الآخرة، أعقب ذلك بذكر مقابلهم الكفرة و أعمالهم، فمثل لهم ولأعمالهم مثلين: أحدهما – يقتضي بطلان أعمالهم في الآخرة، وأنهم لا ينتفعون بها، والثاني – يقتضي حالها في الدنيا من ارتباكها في الضلال والظلمة...[316].

[312] شهاب الدين الآلوسي: "روح المعاني "، ج11/ ص 100.
[313] الزمخشري: "الكشاف "، ج 3/ ص 129، ومحمد الأمين العلوي الهرري: "حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن "/ دار طوق النجاة/ بيروت/ ط1: 2001/ ج12/ ص 239.
[314] أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي: "البحر المحيط "/ تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض وآخرون / دار الكتب العلمية/ بيروت/ ط1: 1993/ ج5/ ص 145.
[315] سورة النور، الآيتان: 39-40.
[316] أبو حيان الأندلسي: "البحر المحيط "، ج6/ ص 423.

ففي التمثيل الأول: "شبهت حالة كدهم في الأعمال وحرصهم على الاستكثار منها، مع ظنهم أنها تقربهم إلى رضى الله، ثم تبين أنها لا تجديهم، بل يلقون العذاب في وقت ظنهم الفوز... شبه ذلك بحالة ظمآن يرى السراب فيحسبه ماء فيسعى إليه، فإذا بلغ المسافة التي خال أنها موقع الماء، لم يجد ماء، ووجد هنالك غريما يأسره ويحاسبه على ما سلف من أعماله السيئة "[317].

وفي التمثيل الثاني: شبهت أعمالهم "في ظلمتها وسوادها لكونها باطلة، وفي خلوها عن نور الحق؛ بظلمات متراكمة من لج البحر والأمواج والسحاب..."[318].

وهكذا صور التمثيل في القرآن الكريم، كلها على هذا النمط البديع، صور حية شاخصة، فيها حركة الحياة، وفيها الإحساس القوي العميق، بكل معاني الحياة...[319]. والتصوير –كما يقول السيد قطب– هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن، فهو يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية، والحادث المحسوس، والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني، والطبيعة البشرية، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها، فيمنحها الحياة الشاخصة، أو الحركة المتجددة، فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد، وإذا النموذج الإنساني شاخص حي، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية...[320].

2- من الحديث النبوي:

- **المثال الأول:** قوله صلى الله عليه وسلم:"مَثَلُ ما بَعَثَنِي اللهُ به مِنَ الهدَى وَالعِلْمِ كَمَثَل الغَيثِ الكثيرِ أصابَ أرضاً فكان مِنها نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ الماءَ، فَأنبتَتْ الكلأَ وَالعُشْبَ الكثيرَ، وَكانَتْ مِنها أَجادِبُ أَمْسَكَتِ الماءَ، فنفعَ اللهُ بها الناسَ فَشَرِبوا وَسَقَوْا وَزَرَعوا، وَأصابَ مِنها طائفةً أُخْرَى إنّما هيَ قِيعانٌ لا

[317] الطاهر ابن عاشور: "التحرير والتنوير "، ج18/ ص 251.
[318] الزمخشري: "الكشاف "، ج4/ ص 310، وابن القيم: "بدائع التفسير "، ج2/ ص 247.
[319] المرجع نفسه، ص: 56.
[320] السيد قطب: "التصوير الفني في القرآن "/ دار الشروق/ القاهرة/ مصر/ ط16: 2002/ ص: 36.

تُمْسِكُ ماءً وَلا تُنْبِتُ كَلأً، فَذلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ في دِينِ اللهِ وَنفعَهُ ما بَعَثَنِي اللهُ به فَعَلِمَ وعلَّمَ، وَمثَلُ مَن لم يَرْفَعْ بِذلكَ رَأْساً، وَلم يَقْبَلْ هُدى اللهِ الذي أُرْسِلْتُ بهِ " رواه البخاريّ ومسلم [321].

ففي هذا الحديث بيان مثل ما بعث به النبي صلى الله عليه وسلم من الهدى والعلم النافع، وبيان أحوال الناس مع هذا الهدى والعلم، قال ابن حجر: "قال القرطبي وغيره: ضرب النبي صلى الله عليه وسلم لما جاء به من الدين مثلا بالغيث العام الذي يأتي في حال حاجتهم إليه، وكذا كان الناس قبل مبعثه، فكما أن الغيث يحيي البلد الميت، فكذا علوم الدين تحيي القلب الميت، ثم شبه السامعين له بالأرض المختلفة التي ينزل بها الغيث، فمنهم العالم العامل المعلم، فهو بمنزلة الأرض الطيبة شربت فانتفعت في نفسها وأنبتت فنفعت غيرها، ومنهم الجامع للعلم المستغرق لزمانه فيه غير أنه لم يعمل بنوافله، أو لم يتفقه فيما جمع، لكنه أداه لغيره، فهو بمنزلة الأرض التي يستقر فيها الماء فينتفع الناس به، وهو المشار إليه بقوله: "نضَّر الله امْرَءاً سَمِعَ مَقالَتِي فَأَدَّاهَا كما سَمِعَها "، ومنهم من يسمع العلم فلا يحفظه ولا يعمل به، ولا ينقله لغيره، فهو بمنزلة الأرض السبخة أو الملساء التي لا تقبل الماء أو تفسده على غيرها... "[322].

لقد كشف لنا هذا الحديث أمر الناس بعد إذ جاءهم الهدى الذي يحتاجون إليه، ويفتقرون له، بهذا الأسلوب من تشبيه التمثيل الذي صوّر لنا هيئة العالم بما فيها من افتقار إلى الهداية، ثم ما كان من مواقفهم إزاء تلك الهداية الإلهية، بما نراه من الصورة المحسوسة الواضحة في الأرض العطشى، إذ ينزل عليها الغيث وما يستتبعه من نبات في أرض "نقية ": طيبة، أو جمع ماء في أخرى "إخاذات " تأخذ وتجمع، أو تضييع وإفساد في ثالثة: "إنما هي قيعان "... [323].

[321] محمد بن إسماعيل البخاري: "الجامع الصحيح "/ دار الشهاب/ الجزائر/ 1990/ كتاب العلم، باب فضل من علم وعلم، ج1/ ص 28 - ومسلم بن حجاج: "صحيح مسلم "/ دار الفكر/ بيروت/ بدون تاريخ/ كتاب الفضائل، باب بيان مثل ما بعث النبي صلى الله عليه وسلم من الهدى والعلم، ج 7/ ص 63 - والحسن بن خلاد الرامهرمزي: "أمثال الحديث "/ تحقيق: عبد العلي عبد الحميد الأعظمي / الدار السلفية/ بومباي/ الهند/ ط1: 1983/ ص 36 - وأبو الشيخ الأصبهاني: "الأمثال في الحديث النبوي " / تحقيق: عبد العلي عبد الحميد الأعظمي / الدار السلفية/ بومباي/ الهند/ ط1: 1982 / ص 243.

[322] أحمد بن علي بن حجر العسقلاني: "فتح الباري بشرح صحيح البخاري " / اعتنى به: أبو قتيبة نظر محمد الفاريابي/دار طيبة/ الرياض/ م. ع السعودية/ ط1: 2005 /ج1/ ص 310، وابن خلاد الرامهرمزي: "أمثال الحديث "، ص: 36 وما بعدها.

[323] نور الدين عتر: "في ظلال الحديث النبوي "/ دار الهدى/ عين مليلة/ الجزائر/ 2008/ ص 18

• **المثال الثاني:** قوله صلى الله عليه وسلم:"مَثَلُ المؤمنينَ في تَوَادِّهِمْ وَ تَراحُمِهِمْ وَتَعاطُفِهِمْ مَثَلُ الجَسَدِ الواحِدِ، إذا اشْتَكَى مِنه عُضْوٌ تَداعَى لَهُ سائِرُ الجسَدِ بِالسَّهَرِ وَالحُمَّى" رواه البخاري ومسلم.[324]

لقد مثل الحديث لحقيقة الإيمان في قلوب المؤمنين الذين يجمعهم ويشد بعضهم ببعض في السراء والضراء، ببناء الجسد الواحد الذي يمسك بعضه بعضا، وقرر بالتمثيل أن كل فرد من أفراد المجتمع المؤمن كالعضو من أعضاء الجسد، إذا أصيب العضو الواحد منه بالألم، سرى الألم في باقي الأعضاء بحكم الرابط الذي يصل بعضهم ببعض، ومثل ذلك مجتمع المؤمنين، إذا ألم أحدهم، أحس بألمه باقي المؤمنين بحكم رابطة الإيمان التي تصل بينهم، وتنقل مشاعر كل فرد إلى غيره، فرابطة الإيمان المعنوية تشبه رابطة الجسم المادية... .[325]

ومما يزيد في تأكيد معنى التماسك بين الممثل له – وهو مجتمع المؤمنين – والممثل به – وهو الجسد... أن الممثل به ورد في صيغة المفرد الذي لا يتحلل إلى أفراد، فيحتفظ بصفات الجسدية، ثم وصف بصفة الواحد إثباتا للوحدة والتماسك وتأكيدا لها، ثم تجانس فعلا الشرط والجزاء في المضي للدلالة على أن الأعضاء يدعو بعضها بعضا إلى الاستجابة والإنقاذ من الهلاك، وكأن خطر الهلاك محدق بكل الأعضاء، لا بالعضو المصاب فقط[326]. وألطف اللطف في التعبير، وأدق الدقة ما يحمله لفظ تداعى من عجيب المعنى، فهو يخيل إليك أن أعضاء الجسد قد هبت للنجدة، يدعو بعضها بعضا، ويناديه لإسعاف صاحبها أو مواساته، ثم يجعل تناديها ليس الصراخ بلا مغيث، وإنما هو الجواب العملي المسعف والمساعد: السهر والحمى... .[327]

[324] البخاري: "الجامع الصحيح "، كتاب الادب، باب رحمة الناس و البهائم، ج 7/ ص 77-78، ومسلم: "صحيح مسلم "، كتاب البر والصلة، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم و تعاضدهم، ج 8/ ص 20، ومحمد بن علي الحكيم الترمذي: "الأمثال من الكتاب والسنة "/ تعليق: سليم مصطفى البدري / دار الكتب العلمية/ بيروت/ ط1: 2003 / ص: 26.

[325] عبد الرحمن بودرع:"الإيجاز وبلاغة الإشارة في البيان النبوي"/مطبعة الخليج العربي/تطوان/ المغرب/ط1: 2009/ص 157-158.

[326] عبد الرحمن بودرع: "الإيجاز وبلاغة الإشارة في البيان النبوي "، ص: 158، وعز الدين علي السيد: "الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية "/ دار اقرأ/ بيروت/ ط2: 1986/ ص 161.

[327] عز الدين علي السيد: "الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية "، ص 161، ونور الدين عتر: "في ظلال الحديث النبوي"، ص 247.

•**المثال الثالث:** قوله صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ مَثَلِي وَمثَلَ الأنبياءِ مِن قَبْلِي، كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بيتاً فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إلاّ مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ فجعلَ النّاسُ يَطوفونَ، وَيعْجَبونَ لهُ، وَيقولونَ: هَلاَّ وُضِعَتْ هذهِ اللَّبِنَةُ ؟ قال: فَأَنا اللَّبِنَةُ، وَأنا خَاتَمُ النَّبِيّينَ " رواه البخاري ومسلم[328].

قال ابن خلاد الرامهرمزي: "هذا مثل نبوته صلى الله عليه وسلم وأنه خاتم الأنبياء، وبه تتم حجة الله عز وجل على خلقه، ومثَّل ذلك بالبنيان الذي يشد بعضه بعضا، وهو ناقص الكمال بنقصان بعضه، فأكمل الله به دينه، وختم به وحيه، والعرب تمثل ما يبالغون فيه من الوثاقة والأصالة وعقدة المكارم والمفاخر، وأشباه ذلك بالبنيان، قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾[329]، يعني لا يزول و لا يتخلخل..."[330].

وليس بخاف ما في ذلك التشبيه من إبداع ودقة فنية، فقد اختار المشبه به بيتا يبنى ويزخرف، وذلك أقرب وألصق بحياة الناس، وأعظم تصويرا للاكتمال المتدرج بوضعه لبنة لبنة، ثم إن مباهاة الناس بحسن البنيان أمر مشاهد ملموس، كذلك فإننا فهمنا أهمية الفراغ الذي ملأته هذه الشريعة؛ لأنه موضع في زاوية، والزاوية لها أهميتها العظيمة، لأنها الركن للبنيان، فالنقص فيها يكون نقصا مهما وخطيرا، ثم إنه موضع لبنة لا يتسع لغيرها، فلا مجال للبنة أخرى، كذلك كانت بعثته صلى الله عليه وسلم الختام النهائي للدعوات السماوية، كما أن اللبنة في البنيان تكون متناسقة ومتآلفة مع باقي أجزاء البنيان، كذلك الدعوة الخاتمة مكملة لما سبقها ومتناسقة معها... [331].

---

[328] البخاري: "الجامع الصحيح "، كتاب الأنبياء، باب خاتم النبيين صلي الله عليه وسلم، ج 4/ ص 162، ومسلم: "صحيح مسلم "، كتاب الفضائل، باب ذكر كونه صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين، ج 7/ ص 64، والحكيم الترمذي: "الأمثال من الكتاب والسنة "، ص 23.

[329] سورة الصف، الآية 04

[330] ابن خلاد الرامهرمزي: "أمثال الحديث "، ص: 7، 8

[331] نور الدين عتر: "في ظلال الحديث النبوي "، ص: 25.

•**المثال الرابع:** قوله صلى الله عليه وسلم: "إِنَّما مثَلي وَمَثَلُ النّاسِ كَمَثَلِ رَجلٍ اسْتَوْقَدَ ناراً، فلمَّا أَضاءَتْ ما حَوْلَهُ جعلَ الفَراشُ وَهذه الدَّوابُّ التي تَقَعُ في النّارِ يَقَعْنَ فيها، فجعلَ الرجلُ يَنْزِعُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ فَيَقْتَحِمْنَ فيها، فَأَنا آخُذُ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النّارِ وَهُمْ يَقْتَحِمونَ فيها "رواه البخاري ومسلم[332].

يقرر الرسول عليه السلام شدة حرصه على المؤمنين ورحمته بهم، وشدة جذب الشيطان وفتنته وطاعتهم، فيضرب لحاله معهم مثلا، ولحالهم مثلا، ويخرجهما في تخييل حسي شهد حقيقته كل منهم: رجل استوقد نارا فشبّت وأضاءت ما حوله، فجذب الضوء الفَراش والجنادب وغيرها مما تغريه النار على اقتحامها، وأسرع إليها يقع فيها، فأخذ يحاول إنقاذهن بنزعهن من النار، فيغلبهن الحمق فيعدن إلى النار يقتحمن فيها[333].

إلى غير ذلك من التمثيلات النبوية التي تظهر مدى عناية البيان النبوي بهذه الأداة التصويرية البديعة.

3- من الشعر العربيّ:

لقد جاء التشبيه التمثيلي في شعر العرب في كثرة لافتة، وشغف به الشعراء منذ القدم... فقد ذكر الدكتور مختار عطية أن التشبيه التمثيلي ورد بالمعلقات في كثرة هائلة، حتى قارب الخمسين موضعا...[334]، ومن ذلك:

قول امرئ القيس في فرس:

مِكَرٍّ مِفَـرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِـرٍ مَعاً　　　كَجُلْمودِ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّـيْلُ مِنْ عَلِ

[332] البخاري: " "الجامع الصحيح، كتاب الرقاق، باب الانتهاء عن المعاصي، ج7/ ص 186، ومسلم: "صحيح مسلم "، كتاب الفضائل، باب شفقته صلى الله عليه و سلم على أمته ومبالغته في تحذيرهم ما يضرهم، ج 7/ ص 64، والحكيم الترمذي: "الأمثال من الكتاب والسنة "، ص: 26...

[333] عز الدين علي السيد: "الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية "، ص 161-162.

[334] مختار عطية: "علم البيان وبلاغة التشبيه في المعلقات السبع "، ص 200.

يقول: هذا الفرس مكر إذا أريد منه الكر، ومفر إذا أريد منه الفرّ، ومقبل إذا أريد منه إقباله، ومدبر إذا أريد منه إدباره، وقوله: معاً، يعني أن الكرّ والفرّ والإقبال والإدبار مجتمعة في قوته لا في فعله، لأن فيها تضادا، ثم شبهه في سرعة مرّه وصلابة خلقه، بحجر عظيم ألقاه السيل من مكان عال إلى حضيض[335]. وقد استوعب عجز البيت في هذا التشبيه التمثيلي تصويرا حيا جمع بين صورتي الفرس والحجر في مشهد آخذ[336].

وكقول عنترة بن شداد في الذباب وقد وقع في روضة:

هَزِجاً يَحُكُّ ذِرَاعَـهُ بِذِراعِهِ قَدْحَ الْمُكِبِّ على الزِّنادِ الأَجْذَمِ

ومعنى البيت أنه شبّه الذباب حين وقع في هذه الروضة فحك إحدى ذراعيه بالأخرى، برجل مقطوع الكفين يوري زنادا، فهو يمده بين ذراعيه إذ لم يكن له كفّان يمرّه بينهما، والأجذم من نعت المكبّ... ، ويقال: إنه لم يُقَل في معنى هذا مثله...[337].

والأمثلة – غيرُ ما ذُكِر – كثيرة في شعر أصحاب المعلقات السبع أو العشر، وعند غيرهم لا تحصى كثرةً... وفيما يلي طائفة منها:

- فمن ذلك قول الفرزدق[338]:

إنَّ المَلامـةَ مِثْلُ ما بَكَرَتْ بهِ مِنْ تَحْتِ لَيْلَتِها عَلَيْكَ نَوارُ

وَتقولُ كَيْـفَ يَميلُ مِثْلُكَ لِلصِّبا وَعلَيكَ مِنْ سِمَـةِ الحَليمِ وَقارُ

وَالشَّيْبُ يَنْهَضُ في الشَّبابِ كَأَنَّهُ لَيْلٌ يَصيـحُ بِجانِبَيْـهِ نَهـارُ

[335] الزوزني: "شرح المعلقات السبع "، ص 44. و أحمد بن الأمين الشنقيطي: "شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها "/ تحقيق: عبد الرحمن المصطاوي / دار المعرفة/ بيروت/ط3: 2007 / ص 44.

[336] مختار عطية: "علم البيان وبلاغة التشبيه... "، ص 200.

[337] الخطيب التبريزي: "شرح ديوان عنترة "/تحقيق: مجيد طراد/دار الكتاب العربي/ بيروت/ 2004/ص 160.

[338] الفرزدق همام بن غالب : "الديوان" / دار الكتاب اللبناني/ مكتبة المدرسة/ بيروت/ ط 1: 1983/ شرح: إيليا الحاوي/ ج1/ ص 600.

قال الدكتور محمد أبو موسى: "المشبه هوالشيب الذي ينهض في الشباب، ويظهر فيه غالبا عليه، والمشبه به هو ليل يحيط بجوانبه نهار، يصيح به كما يصيح الغالب بالمغلوب..."[339].

وقال أيضا: "الصورة هنا صورة حسنة، فيها أكثر مما قلناه: فيها قوله "ينهض " تلك التي تشير إلى غلبة الشيب للشباب، واستيلائه على معاقله؛ من فتوة وصبوة واقتدار، وأنه محيلها إلى ما يضاد ذلك، وقد قابل الشاعر هذه الحالة في المشبه بما يؤديها في المشبه به، فقال: "يصيح " وهي كلمة مؤذنة بضياع الليل ومحقة واستيلاء النهار على سلطانه كله، فالنهار يصيح بجانبيه محاصرا له، كما يصيح الفارس المغوار"[340]. ولاحظ الدكتور الفاضل أن ثمت في تلك الصورة: "مناسبة دقيقة بين الشباب والليل، والشيب والنهار، وهذه المناسبة يؤذن بها السياق، لأن الكلام وارد على لسان صاحبته التي تعذله على الغني بعد الشباب، وأنه لم يَرْعَوِ عن جهالته، رغم أنه قد صار عليه " من سمة الحليم وقار " فالليل يشبه تلك الغشاوة التي تح ـول بين المرء في زمن الصبا، وبين رؤي ـة الرشد واتبّاعه، وتجعله يوض ـع المطية في الجهل..." [341].

- وقال أبو الطيب المتنبي[342]:

لا يُعْجِبَنَّ مَضِيماً حُسْـنُ بِزَّتِهِ   وَهَلْ يَروقُ دَفِيناً جُودَةُ الكَفَنِ

يريد بحسن بزته اليسر وسعة الرزق، يقول: لا ينبغي له أن يفرح بذلك على ما هو فيه من الذل، فإنه كالميت الذي عليه أكفان حسنة [343]. فالشاعر هنا قد رسم "صورة مقزِّزة لذلك الذليل الخانع الذي يعيش بلا كرامة، وتعجبه ظواهر الأشياء من ثياب يتباهى بها ونحو ذلك، بينما إنسانيته جريحة مهانة فهو ميت، لأن من فقد كرامته لم يبق له من إنسانيته إلا صورة اللحم والدم، وهذه شركة بين الناس والبهائم،

[339] محمد أبو موسى: "التصوير البياني "، ص 58-59.
[340] محمد أبو موسى: "التصوير البياني "، ص 59.
[341] المرجع نفسه.
[342] ناصيف اليازجي: "العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب "، ج1/ ص 375.
[343] المرجع نفسه، ج1/ ص 375.

فيكون قد فقد وجوده كإنسان محترم، وصار في عداد الأموات، وماذا ينفع الميت جودة كفنه، طالما أنه مدفون تحت التراب تأكله القوارض والديدان؟ والوجه المتحقق بالطرفين هنا: عدم الاعتداد بالزينة إذا كانت في غير موضعها "[344].

وقال الغزّيّ في هموم الحياة التي تعرض للناس:

إذا قَلَّ عَقْلُ المَرْءِ قَلَّتْ هُمومُهُ   وَمَنْ لم يَكُنْ ذَا مُقْلَةٍ كَيْفَ يَرْمَدُ

يعبر الشاعر عن معاناة رجال الفكر والمعرفة من بني الإنسان أحسن تعبير، فالحياة بحر من الآلام والمتاعب والأحزان، ويدرك الناس من أحزانها وآلامها على قدر عقولهم، فمن كان عقله قليلا، قلت همومه ومتاعبه، وقد جسد الشاعر هذا المعنى بصورة حسية تبينه وتوضحه، فشبه قليل العقل الذي قلت همومه، وذوت أحلامه، فلم يدرك من أشجان الحياة شيئا يذكر... بالأعمى الذي فقد عينه، فأنى يصيبه الرمد بعد ذلك. إنها صورة حسنة تجسد حال قليلي العقل بقلة الهموم، أولئك الذين فقدوا نور البصيرة؛ بمن فقد نور بصره فليس يرمد، فكلاهما عديم الرؤية لما حوله، ولكن الأول أشد عمى من الثاني، وذلك لأن من فاته نور البصيرة، صار كالحيوان يسرح ويتمتع، ولا هدف له غير ذلك، وأما من فاته نور البصر، فقد يعوضه الله من نور البصيرة ما يسد به فقد بصره، فيرى من الحياة ما لم يره غيره... [345].

ومن ذلك قول الفرزدق[346]:

وَإِنَّكَ إذْ تَهْجو تَميماً وَ تَرْتَشِي   سَرَابيلَ قَيْسٍ أَوْ سُحُوقَ العَمائِمِ

كَمُهْـريقِ ماءٍ بِالفَلاةِ وَغَرَّهُ   سَرابٌ أَذاعَتْهُ رِياحُ السَّمائِمِ

[344] محمد رفعت أحمد زنجير: "التشبيه في مختارات البارودي – دراسة تحليلية " (رسالة دكتوراه)/ كلية اللغة العربية/ جامعة أم القرى/ المملكة العربية السعودية/ 1415هـ-1995م/ ص 295.

[345] محمد رفعت أحمد زنجير: "التشبيه في مختارات البارودي "، ص 405-406.

[346] الفرزدق: "الديوان "، ج2/ ص566.

قال الدكتور أبو موسى: "أراد أنك حين تجفو تميا وتختار قيسا وتؤثرها عليها تكون خاسرا ومضيعا لخير ينفعك في وقت الحاجة... وقد صوّر هذا المعنى في قوله: "كمهريق ماء بالفلاة "، ولو قال: كمهريق ماء وغره سراب، لأدى المغزى العام، ولكنه لما ذكر الفلاة أفاد شدة حاجته إلى الماء حيث لا يجد له بديلا في حر الصحراء المحرق، ثم أكد هذا المعنى وزاده عمقا بقوله: "أذاعته رياح السمائم "، لأن رياح السمائم رياح حارة جدا. فالمذكور في فلاة تهب فيها هذه الرياح الملتهبة، وهذا هو التفصيل الذي قلنا إنه تحليل للفكرة، وتجلية لأبعادها، وإشارة صحيحة لصدق الإحساس بها، فتميم هي الماء الذي يروي ظمأه في حر الأحداث اللافحة، وقيس هي ذلك السراب الخادع المتلف لراجيه... "[347].

إلى غير ذلك من الأمثلة التي لا تحصى كثرة، والتي تزخر بها دواوين الشعر والأدب في مختلف العصور.

والحقيقة أن ما قيل عن "تشبيه التمثيل " ما هو إلا غَيض من فَيض، فهو في القرآن آية على "إعجاز " الكتاب العزيز، وفي أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم عَلَمٌ من أعلام البلاغة النبوية، وفي الشعر العربي دليل من دلائل النبوغ... ولا عجب إذا ما عرف الإنسان حقيقة ذلك الفن البديع، ووقف على بعض ما ينطوي عليه من أسرار... إنه ليعمل في النفوس والعقول عمل السحر، فيهز الكيان ويأخذ بالألباب...

ويبقى أن نفصّل القول في جهود علَم من أعلام البلاغة العربية، في رفع قواعد ذلك الفن، وإبراز معالمه، ومقدار تلك الجهود.

[347] محمد ابو موسى: "التصوير البياني "، ص: 147.

الفصل الثالث

الجوانب النظرية في تشبيه التمثيل من خلال كتابي "أسرار البلاغة" و"دلائل الإعجاز" لعبد القاهر الجرجاني

لقد سبق في حديثنا في الفصل الثاني عن "التمثيل " أن خلصنا إلى أن دلالة التشبيه والتمثيل في اللغة دلالة واحدة، و أن بعض البلاغيين كالزمخشري و ابن الأثير... قد يكونون نظروا إلى اتحاد الدلالة اللغوية لكل منهما، فجعلوهما مترادفين، و لم يفرقوا بينهما، فكل تمثيل عندهم تشبيه، و كل تشبيه تمثيل.... .

أما معظم علماء البلاغة وجمهورهم، فإنهم يفرقون بينهما. . وعلى رأس هؤلاء ثلاثة أعلام، تألقت نجومهم في سماء البلاغة العربية، وهم : عبد القاهر الجرجاني، وأبو يعقوب السكاكي، والخطيب القزويني...وهؤلاء الثلاثة اعتمدوا في تحديد التمثيل، والتفرقة بينه و بين التشبيه على وجه الشبه المنتزع من الطرفين، و لكن اختلفت وجهة نظرهم في ذلك التفريق...وقد مضى بيان ذلك، غير أننا اكتفينا في بيان مذهب عبد القاهر في "التمثيل "، بإشارة مختصرة عامة اقتضى المقام ذكرها كما أسلفنا...

ويأتي هذا الفصل الثالث...والذي نسعى من خلاله إلى بسط القول في مذهب هذا العلم الجليل في "التمثيل، من حيث مفهومه، والفروق بينه و بين التشبيه، ومراتبه، ومواقعه، وتأثيره في النفس...وآراء عبد القاهر التي نسعى لبيانها، قد بثها في كتابيه الجليلين: "دلائل الإعجاز " و"أسرار البلاغة " وبخاصة هذا الأخير والذي اشتمل على جل تلك الآراء...والكتابان– في الشهرة- كنار على علم .

♦حقيقة تشبيه التمثيل عند عبد القاهر:

لقد فرق عبد القاهر الجرجاني بين نوعين مختلفين من التشبيه:

الأول: تشبيه غير تمثيل، "وهذا النوع يسميه "التشبيه الصريح "، أو"التشبيه الحقيقي الأصلي" [348]، أو"التشبيه الظاهر[349]، أو "التشبيه " فقط، كما هو الحال في المواضيع التي يذكر فيها الفروق بينه و بين التمثيل كما سيأتي.

والثاني: تشبيه تمثيل، ويسميه "التمثيل "...

والسؤال الذي يطرح هنا هو: ما حقيقة تشبيه التمثيل عند عبد القاهر، وعلى ماذا اعتمد في التفريق بينه وبين التشبيه غير التمثيلي؟ والجواب عن ذلك يضطرنا إلى الحديث عن حقيقة التشبيه و التمثيل عنده، وفيما يتحقق كل منهما، وشواهد ذلك.

*حقيقة التشبيه عند عبد القاهر:

قال عبد القاهر:"اعلم أن الشيئين إذا شبه أحدهما بالآخر،كان ذلك على ضربين:

أحدهما : أن يكون من جهة أمر بين لا يحتاج إلى تأول.

والآخر: أن يكون الشبه محصلا بضرب من التأول..."[350]

ثم شرع يتكلم عن الضرب الأول، فقال:"فمثال الأول: تشبيه الشيء بالشيء من جهة الصورة والشكل،نحو أن يشبه الشيء إذا استدار بالكرة في وجه،وبالحلقة في وجه آخر،وكالتشبيه من جهة اللون، كتشبيه الخدود بالورد،والشعر بالليل، والوجه بالنهار، وتشبيه سقط النار بعين الديك، وما جرى في هذا الطريق.." [351]،وهو يريد بعبارته" وما جرى في هذا الطريق"-كما ذكر الدكتور المطعني- أن تقيس

---

[348] شفيع السيد : "البحث البلاغي عند العرب "، ص 103، و عبد القاهر الجرجاني: "أسرار البلاغة، ص 99، و108 على سبيل المثال.

[349] عبد القاهر الجرجاني: "أسرار البلاغة "، ص 108، 234.... مثلا.

[350]عبد القاهر الجرجاني: "أسرار البلاغة "، ص 90.

[351]عبد القاهر الجرجاني: "أسرار البلاغة "، ص 90

على تشبيه اللون باللون ما كان مثله من بقية الأمور التي تدرك بواحدة من طرق الحواس الخمس.قال:"وهذا ضرب من أضرب التشبيه عند الإمام عبد القاهر، وليس حاصرا لكل صور التشبيه، ويظهر لك هذا من قوله الآتي:"أوجمع الصورة واللون معا، كتشبيه الثريا بعنقود الكرم المنور،والنرجس بمداهن در حشوهن عقيق.." [352]، أراد الإمام أن يبين لك أن الوجه المركب الحسي مثل الوجه المفرد الحسي في أن التشبيه فيها باق في باب التشبيه"[353].

كما يدخل في هذا الضرب الأول أيضا –عنده: التشبيه من جهة الهيئة، ويدخل فيها حال الحركات في أجسامها، و كذلك كل تشبيه جمع بين شيئين فيما يدخل تحت الحواس، كالأصوات، و كتشبيه بعض الفواكه الحلوة بالعسل و السكر، و تشبيه اللين الناعم بالخز، والخشن بالمسح، أو رائحة بعض الرياحين برائحة الكافور... [354]

وفيما يلي طائفة من الأمثلة التي ذكرها عبد القاهر من هذا الضرب، مما يدخل تحت الحواس، مفردا كان وجهه أم مركبا:

- قال ابن الرومي: [355]

حِبْرُ أبي حَفصٍ لُعابُ اللَّيلِ   يَسيلُ لِلإخْوانِ أَيَّ سَيْلِ

المراد بلعاب الليل:سواده، فقد شبه حبر ذلك الكاتب بلعاب الليل في السواد، ووجه الشبه وهو السواد مفرد حسي، له وجود حقيقي في كل من المشبه والمشبه به [356]

- وقال بعضهم يشبه سقط النار بعين الديك: [357]

وسِقْطٍ كَعَينِ الدِّيكِ عاوَرْتُ صُحْبَتِي

---

[352] المصدر نفسه، ص 90.

[353] عبد العظيم المطعني: " التشبيه و التمثيل "، ص 14.

[354] عبد القاهر الجرجاني: "أسرار البلاغة "، ص 90، 91.

[355] المصدر نفسه، ص 220.

[356] عبد الفتاح فيود: " دراسات بلاغية "، ص 150.

[357] البيت لذي الرمة، و تمامه:... . أباها، و هيأنا لموضعها وكرا، ينظر: محمود شاكر: هامش تحقيق "أسرار البلاغة "، ص 161، وذو الرمة : "الديوان "/ شرح: أحمد حسن بسج /دار الكتب العلمية / بيروت / لبنان / ط1: 1995 / ص 87.

السقط: ما سقط بين الزندين قبل استحكام الورى، وقد شبه النار بعين الديك، عاورت صاحبي (أوصحبتي): تداولت، فأنا أقدح مرة وهو مرة.[358]

-ومن ذلك قول أبي قيس بن الأسلت أو قيس بن الخطيم:[359]

وقدْ لاحَ فِي الصُّبْحِ الثُّرَيّا لِمَن رَأَى   كَعُنْقودِ مُلاّحِـــيَّةٍ حِينَ نَوَّرَا

فقد شبه نجوم الثريا بعنقود العنب حين نور، ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من تجمع أجسام بيض مستديرة وصغيرة على كيفية مخصوصة، فهو مركب حسي، وله وجود حقيقي –كما نرى- في كل من طرفي التشبيه...[360]

-وكقول ذي الرمة:[361]

كأَنَّ أَصْوَاتَ، مِنْ إيغالِهِنَّ بِنا،   أَواخِرِ المَيْسِ إنْقَاضُ الْفَرارِيجِ

تقدير البيت: "كأن أصوات أواخر الميس أصوات الفراريج من إيغالهن بنا "، ثم فصل بين المضاف والمضاف إليه بقوله: "من إيغالهن..."[362].

يصف أصوات الرحال المصنوعة من شجر الميس، وقد أسرعت بهم المطايا في السير، فصار يسمع لتلك الرحال أصوات الفراريج الصغار، فوجه الشبه وهو تلك النغمة الخاصة الناتجة من احتكاك أعواد الرحل عند السير، و المسموعة من أفراخ الدجاج، مفرد حسي مدرك بحاسة السمع، و له وجود حقيقي في طرفي التشبيه كما هو واضح. ويؤخذ على الشاعر في هذا البيت فصله بين المضاف "أصوت"، والمضاف إليه "أواخر الميس "، بقوله: " من إيغالهن بنا "، إذ الأصل: كأن أصوات أواخر الميس

---

[358] ذو الرمة: "الديوان "، ص 87.

[359] ذكر محقق ديوان قيس بن الخطيم هذا البيت ضمن الشعر المنسوب لابن الخطيم، و ذكر أنه منسوب إلى أبي القيس بن الأسلت في "الأغاني " (15 / 159)، و"التشبيهات" (5)، و"معاهد التنصيص" (2/ 17)...ينظر: قيس بن الخطيم :"الديوان"/ تحقيق: ناصر الدين الأسد/ دار صادر/ بيروت/ بدون تاريخ/ص 234.وقد نسبه عبد القاهر الجرجاني في الأسرار الي قيس بن الخطيم، ص95.

[360] عبد الفتاح فيود: " دراسات بلاغية "، ص 150

[361] عبد القاهر الجرجاني: "أسرار بلاغية "، ص91، و ذو الرمة: "الديوان "، ص 42.

[362] عبد القاهر الجرجاني: "أسرار بلاغية "، ص91.

أصوات الفـراريج من إيغالهن بنا، و هذا الفص ـل عيب يخل بفصاح ـة الكلام، ويعرف بالمعاظ ـلة أو التعقيد اللفظي... [363]

إلى غير ذلك من التشبيهات الحسية التي يدرك وجه الشبه فيها بإحدى الحواس الخمس الظاهرة، ويكون له وجود حقيقي في طرفي التشبيه سواء أكان هذا الوجه الحسي المنتزع من الطرفين مفردا أم مركبا من عدة أمور.... [364]

ومما يندرج في باب التشبيه دون التمثيل عند الإمام عبد القاهر: كل تشبيه وقع بين الغرائز والطباع، وهي الانفعالات الغرزية والأخلاق الراسخة، وما جرى عليه طبع أو سجية... [365] أو بعبارة أخرى: "...تلك التشبيهات التي يكون وجه الشبه فيها عقليا حقيقيا، أي: من الغرائز والطباع و الأخلاق الراسخة، كالكرم والشجاعة واللؤم و المكر و الخداع و المراوغة ونحو ذلك... [366]. وفي ذلك يقول عبد القاهر:

"...وهكذا التشبيه من جهة الغريزة والطباع، كتشبيه الرجل بالأسد في الشجاعة، وبالذئب في النكر. والأخلاق كلها تدخل في الغريزة نحو السخاء والكرم واللؤم، وكذلك تشبيه الرجل بالرجل في الشدة و القوة و ما يتصل بها ". [367]

فقول عمران بن حطان:

أَسَدٌ عَلَيَّ وَفي الحُروبِ نَعامَةٌ   فَتْخاءُ تَنْفِرُ مِن صَفيرِ الصَّافِرِ

شبه المهجوّ بالأسد في الشجاعة وقت السلم، وبالنعامة الفتخ ـاء في الضعف والجبن وقت الحرب والنزال، و وجه الشبه من الكيفيات الراسخة المتقررة في النفس، ولذا عده عبد القاهر تشبيها...

[363] عبد الفتاح فيود : "دراسات بلاغية "، ص 150، 151، وعبد العظيم المطعني : "التشبيه والتمثيل "، ص12.

[364] عبد الفتاح فيود: "دراسات بلاغية "، ص152.

[365] عبد العظيم المطعني: " التشبيه و التمثيل "، ص 15.

[366] عبد الفتاح فيود: "دراسات بلاغية "، ص152.

[367] عبد القاهر الجرجاني: "أسرار بلاغية "، ص91، 92.

وقول الشاعر يهجو إنسانا يعد ولا يفي:

يُعْطِيكَ مِنْ طَرَفِ اللِّسانِ حَلاوةً وَيَروغُ مِنْكَ كما يَروغُ الثَّعْلَبُ

يَلْقاكَ يَحْلِفُ أنَّه بِكَ واثِقٌ وَإِذَا تَوارَى عَنكَ فَهْوَ الْعَقْرَبُ

يطالعك فيه تشبيهان: الأول: تشبيه روغان مخلاف الوعد بروغان الثعلب، أي تشبيه طباع بطباع، وهذا عند الإمام تشبيه لا تمثيل. والتشبيه الثاني موطنه في البيت الثاني " فهو العقرب "، وهو تشبيه بليغ لحذف الوجه والأداة، ووجه الشبه شدة الإيلام، فهو راجع إلى الغرائز و الانفعالات. وقد علمت أن كل ما كان كذلك فهو عند الإمام تشبيه لا تمثيل.[368]

وأما سبب عد عبد القاهر الجرجاني ما كان الوجه فيه من الأخلاق و الغرائز والطباع الثابتة تشبيها، فهو كما ذكر الدكتور عبد الفتاح فيود أن وجه الشبه عندما يكون من تلك الأمور فهو بين ظاهر، لا يحتاج في إدراكه إلى تأول و صرف عن الظاهر، إذ هو مقرر ثابت، له وجود حقيقي في كلا الطرفين.[369]

وقد بين الجرجاني هذه الحقيقة، بقوله: " فالشبه في كل هذا كله بين لا يجري فيه التأول، ولا يفتقر إليه في تحصيله، وأي تأول يجري في مشابهة الخد للورد في الحمرة، وأنت تراها ههنا كما تراها هناك؟ وكذلك تعلم الشجاعة في الأسد كما تعلمها في الرجل ".[370]

قال الدكتور عبد العظيم المطعني: " أي أن الإمام قد لحظ أن الشبه إذا جرى بين الحسيات في وجه حسي، أو بين الغرائز والطباع والأخلاق، فإنه يجري على نسق واحد هو ظهور المراد من التشبيه بلا خفاء ولا عناء. لذلك جمع بينها، و سمى ما يقع بينها كلها تشبيها لا تمثيلا. وهذا هو معنى قوله في أول مبحث التشبيه والتمثيل: "اعلم أن الشيئين إذا شبه أحدهما بالآخر كان ذلك على ضربين: أحدهما: أن

[368] عبد العظيم المطعني: " التشبيه و التمثيل "، ص 16 و 17.
[369] عبد الفتاح فيود: "دراسات بلاغية "، ص 153.
[370] عبد القاهر الجرجاني: "أسرار بلاغية "، ص 92.

يكون من جمة أمر بين لا يحتاج فيه إلى تأويل..." [371]. ولذلك، فان الدكتور المطعني يرى أن الحسية والغرزية التي ذكرها عبد القاهر، ليست مقصودة لذاتها، بل لما يترتب عليها من أمر هو الفيصل بين التشبيه والتمثيل، ذلك الأمر هو الوضوح و الظهور البين، وما دام الأمر كذلك فان المقام يتسع لصور أخرى غير المحسوسات تدخل عند الإمام في باب التشبيه فكل صورة كان وجه الشبه فيها واضحا جليا فهو تشبيه سواء كان ذلك في الحسيات أو العقليات، المركبات أو المفردات... [372].

وخلاصة القول: أن التشبيه غير التمثيلي عند عبد القاهر هو ما كان وجه الشبه فيه أمرا بينا بنفسه، لا يحتاج فيه إلى تأويل و صرف عن الظاهر، لأن المشبه مشارك للمشبه به في نفس وجه الشبه وحقيقة جنسه، لا في مقتضاه و لازمه.

وذلك يتحقق في أمرين اثنين:

-الأول: أن يكون وجه الشبه حسيا، أي مدركا بإحدى الحواس الخمس الظاهرة، فيكون من المبصرات أو المسموعات أو المشمومات أو المذوقات أو الملموسات، سواء أكان الوجه مفردا أم مركبا.

-الثاني : أن يكون وجه الشبه غرزيا طبيعيا "عقليا حقيقيا، فالغزائر والطباع و إن كانت عقلية، لأنها لا تدرك بإحدى الحواس الخمس الظاهرة فقد ألحقها عبد القاهر بالحسيات لأنها حقائق متقررة ثابتة، تعلمها في المشبه به كما تعلمها في المشبه... [373].

*** حقيقة التمثيل عند عبد القاهر:**

1 -مفهوم التمثيل:

بعد أن أنهى عبد القاهر حديثه عن الضرب الأول من التشبيه، وهو التشبيه غير التمثيلي...انتقل إلى الحديث عن الضرب الثاني، وهو التشبيه التمثيلي، أو"التمثيل"، وهو:"ما لا يكون وجه الشبه فيه

[371] عبد العظيم المطعني : " التشبيه و التمثيل "، ص 17 و 18.

[372] المرجع نفسه، ص 18، و عبد الفتاح فيود: "دراسات بلاغية "، ص 155.

[373] السيد محمود شيخون : "الإيضاح في التمثيل البلاغي " ص 9، 10. و بدوي طبانة : "البيان العربي... "، ص 249، و عبد العاطي غريب علام: "البلاغة العربية بين الناقدين الخالدين "، ص 156.

أمرا بينا بنفسه، بل يحتاج في تحصيله إلى تأول وصرف عن الظاهر "[374]، وقد مثل لهذا الضرب بقولهم: "حجة كالشمس في الظهو"، وكلام ألفاظه كالماء في السلاسة، وكالنسيم في الرقة، وكالعسل في الحلاوة"، وبقول بعضهم: "كانوا كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها ". قال عبد القاهر:" ومثال الثاني، وهو الشبه الذي يحصل بضرب من التأول، هذه حجة كالشمس في الظهور، وقد شبهتَ الحجة بالشمس من جهة ظهورها كما شبهتَ فيما مضى الشيء بالشيء من جهة ما أردت من لون أو صورة أو غيرهما، إلا أنك تعلم أن هذا التشبيه لا يتم لك إلا بتأول..."[375]، ثم أخذ يبين طريق التأول في المثال المذكور بقوله: "...وذلك أن تقول: حقيقة ظهور الشمس وغيرها من الأجسام، أن لا يكون دونها حجاب أو نحوه، مما يحول بين العين وبين رؤيتها، ولذلك يظهر الشيء لك إذا لم يكن بينك وبينه حجاب، ولا يظهر لك إذا كنت من وراء حجاب، ثم تقول: إن الشبهة نظير الحجاب فيما يدرك بالعقول، لأنها تمنع القلب رؤية ما هي شبهة فيه، كما يمنع الحجاب العين أن ترى ما هو من ورائه..."[376].

قال الدكتور غريب علام:"و يمكن أن يقال في المثال السابق: المشبه مفرد عقلي، لأن المراد بالحجة معنى الكلام المسموع، والمشبه به مفرد حسي، ولما كان وصف المشبه به الحقيقي وهو الظهور من خواص المحسوسات، لأن معناه ألا يكون هناك مانع للبصر من الرؤية، لم يصح أن يوصف به المشبه، فاحتجنا إلى التأول وصرف الكلام عن ظاهره، وإرادة ما يستلزمه الظهور وهو عدم المانع من الإدراك"؛ليكون مشتركا بين الطرفين، وهو عقلي غير حقيقي" [377]، والمراد بالتأول هو إرجاع وجه الشبه إلى معنى أن يكون له وجود في الطرفين، بوجه من الحيلة والتلطف والذكاء [378]...فوجه الشبه بين الحجة والشمس هو مطلق الإدراك، وهذا موجود في الطرفين: الشمس مدركة بالحس إذا ارتفع الحجاب،

[374] السيد محمود شيخون: " الإيضاح في التمثيل البلاغي "، ص 10

[375] عبد القاهر الجرجاني: " أسرار البلاغة "، ص 92.

[376] عبد القاهر الجرجاني: "أسرار البلاغة "، ص 92.

[377] عبد العاطي غريب علام : " دراسات في البلاغة العربية "، منشورات جامعة قان يونس/ بنغازي/ ليبيا/ ط1 : 1997 / ص 103.

[378] عبد العظيم المطعني: " التشبيه و التمثيل "، ص 20.

والحجة مدركة بالعقل إذا ارتفعت الشبهة، وهذا معنى التأول والصرف عن الظاهر، لأننا لم نرد أن الحجة مرئية كرؤية الشمس بل إنها مرئية رؤيا علمية عقلية...[379].

وكذا القول في المثال الثاني: "كلام ألفاظه كالعسل حلاوة، و كالماء في السلاسة، وكالنسيم في الرقة، لأن الحلاوة والسلاسة والرقة لا وجود لها في جانب المشبه، فنحن بحاجة إلى تأول نصل به إلى وجه شبه له تحقق في كلا الطرفين، و هو بعد التأول: "الاستطابة وميل النفس وحصول الراحة واللذة لها، وهذا الوجه يوجد في الكلام حيث يحدث الكلام الجيد في النفس سرورا وأريحية، كما يوجد في العسل والماء والنسيم الذي يمتع النفس وتلذ به...[380].

وكذا القول في المثال الآخر، وهو: قول كعب الأشقري، وقد أوفده المهلب على الحجاج، فوصف له بنيه وذكر مكانهم من الفضل والبأس، فسأله في آخر القصة: "فكيف كان بنو المهلب فيهم؟ قال:كانوا حماة السرح نهارا، فإذا أليلوا ففرسان البيات.قال:فأيهم كان أنجد؟قال:كانوا كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها"[381]، فمعنى ذلك أن بني المهلب لتناسب أصولهم وفروعهم في الشرف، يمتنع تعيين بعضهم فاضلا وبعضهم أفضل منه كما أن الحلقة المفرغة لتناسب أجزائها، يمتنع تعيين بعضها طرفا وبعضها وسطا... [382]، ونصل بالتأول من التناسب المحسوس الذي يوجد في الحلقة إلى " التناسب الكلي التام الذي لا تفاوت فيه"[383].

وذكر الدكتور أبو موسى أن المشبه في كل صور التمثيل التي ذكرها عبد القاهر أمر عقلي، وأن المشبه به في كل صور التمثيل التي ذكرها هو أمر حسي، وإنما سمي التمثيل تمثيلا لأنه يمثل الأمور المعقولة

[379] عبد الفتاح فيود: "دراسات بلاغية " ص 154. وعبد العظيم المطعني:" التشبيه والتمثيل"، ص 20.

[380] عبد الفتاح فيود: "دراسات بلاغية " ص 154.

[381] عبد القاهر الجرجاني: " أسرار البلاغة "، ص 94، و ذكر محمود شاكر أن هذه القصة مذكورة في كتاب الكامل للمبرد...وينظر: أبو العباس محمد بن يزيد المبرد: "الكامل"/، تحقيق محمد أحمد الدالي/ مؤسسة الرسالة/ بيروت/ ط3: 1997 / ج3، ص 1347. 1348

[382] ابن عبد الله شعيب، علم البيان، ص 25.

[383] عبد الفتاح فيود: "دراسات بلاغية " ص 154.

ويجعلها شاخصة ماثلة في أمر محسوس... [384]، كما ذهب إلى أن التأول الذي هو أساس التمثيل لا يكون إلا مع الوجه الحسي...فوجه الشبه مثلا في قول الشاعر:

اصْبِرْ علَى مَضَضِ الْحَسُو   دِ فَإِنَّ صَبْـــرَكَ قاتِـلُهْ

فَالنَّارُ تَأْكُــــلُ نَفْسَــهَا   إِنْ لَمْ تَجِــدْ ما تَأْكُلُـهْ

هو ما تراه عينك في هذه النار التي لم تمد بالحطب، وهي تأكل نفسها، وليس الفناء لانقطاع مدد البقاء، كما قال المتأخرون...قال- أي أبو موسى-: "...وهذا الذي أسس عبد القاهر عليه الفرق حين ذكر أن التمثيل ما كان الوجه فيه متأولا، لأن الوجه العقلي لا تأويل فيه، و إنما التأويل لأن هذا الوجه الحسي لا يقوم في المشبه إلا على وجه التأول، و كأن تقول: إن الذي تراه في الحسود الذي تركت مقاولته، كالذي تراه في هذه النار التي تأكل نفسها، أنت هنا تبين أن الوجه الحسي قائم في المشبه على وجه المقاربة، وأن الذي في المشبه ليس هو وجه الشبه، وإنما هو شيء يشبه وجه الشبه، أو هو لازم الوجه كما قال القاهر، وهذا اللازم هو الذي اعتبره المتأخرون وجه الشبه، وسكتوا عن التأول، وأسقطوا التصوير الحسي الذي هو محض التمثيل، وقد قامت دراسة التمثيل عند عبد القاهر على هذا التأول..."[385]

2- مراتب التمثيـل:

وبعد أن تحدث عبد القاهر عن الضرب الثاني من ضربي التشبيه، وهو"التمثيل".. ذكر أنه "يتفاوت تفاوتا شديدا، فمنه ما يقرب مأخذه و يسهل الوصول إليه بقليل من التأمل كما في المثال الأول، و منه ما يحتاج فيه إلى قدر من التأمل كما في المثال الثاني ظن ومنه ما يدق ويغمض حتى يحتاج في استخراجه إلى فضل روية ولطف فكرة، كما في المثال الثالث..." [386]، وفي ذلك يقول عبد القاهر: "ثم إن ما طريقه التأول يتفاوت تفاوتا شديدا، فمنه ما يقرب مأخذه و يسهل الوصول إليه، ويعطي المقادة طوعا، حتى أنه

[384] محمد أبو موسى : " مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني " / مكتبة وهبة / القاهرة / ط1 :1998/ ص 374.

[385] محمد أبو موسى: " مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني "، ص 375-376.

[386] عبد الفتاح فيود: "دراسات بلاغية " ص 154.

يكاد يداخل الضرب الأول الذي ليس من التأول في شيء، وهو ذكرته لك – ومنه يحتاج فيه إلى قدر من التأمل و منه ما يدق و يغمض حتى يحتاج في استخراجه إلى فضل روية و لطف فكرة..."[387]

فهذا النص من عبد القاهر يشير إلى أن التفاوت في الخفاء في صور التمثيل على درجات، وهي حسب الترتيب التصاعدي لها: [388]

- نوع فيه خفاء يسير، ومن أمثلته عنده تشبيه الحجة بالشمس في الظهور.
- ونوع أعلى قليلا من النوع الأول...كما في تشبيه الكلام بالماء في السلاسة،والنسيم في الرقة، والعسل في الحلاوة...وفي المقارنة بين هذين النوعين يقول:"..فهذا كله تأول ورد شيء إلى شيء بضرب من التلطف، وهو أدخل قليلا في حقيقة التأول، وأقوى حالا في الحاجة إليه من تشبيه الحجة بالشمس"[389].
- ونوع يشتد فيه أمر التأول...كما في قول كعب الأشقري السابق: "كانوا كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها "...يقول عبد القاهر معلقا على هذا المثال: "فهذا كما ترى ظاهر الأمر في فقره إلى فضل الرفق به والنظر، ألا ترى أنه لا يفهمه حق فهمه إلا من له ذهن ونظر يرتفع به عن طبقة العامة؟ وليس كذلك تشبيه الحجة بالشمس، فإنه كالمشترك البين الاشتراك، حتى يستوي في معرفته اللبيب اليقظ والمضعوف المغفل، وهكذا تشبيه الألفاظ بما ذكرت، قد تجده في كلام العامي. فأما ما كان مذهبه في اللطف مذهب قوله: " هم كالحلقة "، فلا تراه إلا في الآداب والحكم المأثورة عن الفضلاء وذوي العقول الكاملة ". [390]

وقد لاحظ الدكتور عبد الفتاح فيود أن ذلك التفاوت الذي ذكره الجرجاني يرجع إلى أمرين اثنين:

- الأول: مقدار الخفاء الذي أحوج إلى التأول...

[387] عبد القاهر الجرجاني: " أسرار البلاغة "، ص 93.
[388] عبد العظيم المطعني: " التشبيه و التمثيل "، ص 22.
[389] عبد القاهر الجرجاني: " أسرار البلاغة "، ص 93.
[390] عبد القاهر الجرجاني: "أسرار البلاغة "، ص 94.

– والثاني: الشيوع والندرة...فإن شاع التمثيل على ألسنة العامة إلى حد استوى الناس جميعا في إدراك وجهه و استخراجه كما في المثال الأول، كان في المرتبة الدنيا من مراتب التمثيل... وإن قل شيوعه كما في المثال الثاني: كلام ألفاظه كالماء في السلاسة..كان في المرتبة الوسطى...وإن ندر ولم يرد إلا على ألسنة الخاصة كما في قولهم: " هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها "كان كان في المرتبة العليا...[391]

قال الدكتور فيود: " وما من ريب في أن المركبات العقلية يتحقق فيها هذان الأمران معا: شدة الخفاء، وعدم الشيوع، ولذا فإنها في أعلى مراتب التشبيه التمثيلي...." [392]، ومن أمثلة ذلك قول عبد الله ابن المعتز:

اصْبِرْ على مَضَضِ الحَسو   دِ فإنّ صَبرَكَ قاتِلُهْ
فَالنّارُ تَأْكُــــلُ بَعضَها   إنْ لمْ تجِدْ ما تأْكُلُهْ

يريد: دع الحسود وأهمله، ولا تلق له بالا، فانك إن فعلت ذلك معه مات حسرة وغيظا... فالمشبه هو الحسود الذي يهمله محسوده، فيزداد غيظه، ويرتد كيده على نفسه، والمشبه به هو النار التي لا تمد بالوقود فتخبو وتزول، ووجه الشبه هو إسراع فناء الشيء عندما لا يمد بأسباب البقاء، وهو وجه عقلي غير حقيقي يحتاج إلى تأول، ومركب من أمرين : توقّف الإمداد الذي ترتب عليه زوال ما كان موجودا بسببه.[393]

3- أنواع وجه الشبه العقلي التمثيلي:

لقد تبين مما سبقك أن وجه الشبه في التمثيل أو التشبيه التمثيلي عند عبد القاهر: "لا يكون حسيا، ولا من الغرائز والطباع العقلية الحقيقية، ولكنه يكون عقليا غير حقيقي"، أي: غير متقرر في ذات

[391] عبد الفتاح فيود: "دراسات بلاغية " ص 156.

[392] المرجع نفسه، ص 157.

[393] عبد الفتاح فيود: "دراسات بلاغية " ص157

الموصوف، فلا يكون بينا في نفسه، بل يحتاج في تحصيله إلى تأول، لأن المشبه لم يشارك المشبه به في صفته الحقيقية..."[394]

وإذاً...فليس كل وجه شبه عقلي يكون تمثيلا عند عبد القاهر، فتشبيه الرجل الشجاع بالأسد وجه الشبه فيه عقلي، وهو مع هذا يسمى تشبيها عنده، و لا يسمى تمثيلا... فعقليّة الوجه لا تكفي في عدّ الصورة تمثيلا إلا إذ انضم إليها نوع من الخفاء.

وعليه فالقاعدة أن كل تمثيل عند عبد القاهر فوجه الشبه فيه عقلي، وليس كل صورة وجه الشبه فيها عقلي تمثيلا... [395]

إذا علم هذا، فالحديث الآن عن وجه الشبه العقلي التمثيلي...فقد أشار عبد القاهر إلى أنه يتنوع إلى: مفرد، ومركب، ومتعدد. وقد جاء هذا التنويع –كما ذكر الدكتور المطعني- على النسق الآتي: [396]

أ - وجه شبه عقلي تمثيلي مفرد: وقد أشار إليه عبد القاهر بقوله: " ثم إن هذا الشبه العقلي، ربما انتزع من شيء واحد، كما مضى من انتزاع الشبه للفظ من حلاوة العسل..."[397]، فالوجه –كما ترى- مفرد عقلي تمثيلي، لانطباق شرط التمثيل عليه.

ب- وجه شبه عقلي تمثيلي مركب: و قد وضحه بقوله: " وربما انتزع من عدة أمور يجمع بعضها إلى بعض، ثم يستخرج من مجموعها الشبه، فيكون سبيله سبيل الشيئين يمزج أحدهما بالآخر، حتى تحدث صورة غير ما كان لهما في حال الإفراد، لا سبيل الشيئين يجمع بينهما و تحفظ صورتهما..."[398].

[394] بدوي طبانة : "البيان العربي "، ص 250.

[395] عبد العظيم المطعني: " التشبيه و التمثيل "، ص 28.

[396] المرجع نفسه، ص 28 و ما بعدها.

[397] عبد القاهر الجرجاني: " أسرار البلاغة "، ص 101.

[398] المصدر نفسه، ص 101.

وقد مثل عبد القاهر لهذا النوع من الشبه العقلي التمثيلي، بقوله عز وجل: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾[399].

فالشبه منتزع من أحوال الحمار، وهو أنه يحمل الأسفار التي هي أوعية العلوم، ومستودع ثمر العقول، ثم لا يحس بما فيها ولا يشعر بمضمونها، ولا يفرق بينها وبين سائر الأحمال التي ليست من العلم في شيء، ولا من الدلالة عليه بسبيل، فليس له مما يحمل حظ سوى أنه يثقل عليه، ويكد جبينه، فهو كما ترى مقتضى أمور مجموعة، ونتيجة لأشياء ألفت وقرن بعضها إلى بعض.[400]

فوجه الشبه في الآية الكريمة حصل من انضمام ثلاثة أشياء نص عليها عبد القاهر، وهي:[401]

- أن روعي من الحمار فعل مخصوص وهي الحمل
- وأن روعي أن يكون المحمول شيئا مخصوصا، وهي كتب العلم.
- وأن روعي أن الحامل لها – وهو الحمار- جاهل بما فيها، وهذه الأمور لا يحصل الشبه بها

بانفرادها بعضها عن بعض، بل بانضمامها، لأن الشبه لا يتعلق بالحمل حتى يكون الحامل حمارا، ولا يتعلق بمطلق حمل الحمار حتى يكون المحمول كتب العلم، ولا يكون الشبه بهذين إلا إذا انضم إليهما جهل الحمار بما يحمل، وهذا هو معنى التركيب في الوجه، بحيث لو أزلت واحدا من الثلاثة من الصورة لاختل التمثيل وذهبت قيمته.

وللدكتور أبي موسى كلام نفيس يبين فيه مراد عبد القاهر من قوله السابق الذكر-معلقا على آية الجمعة-: "...فيكون سبيله سبيل الشيئين يمزج أحدهما بالآخر."، يقول:"...وفي هذا المقام يذكر الشيخ أن العناصر اللغوية تتداخل، وتسبك، وتصهر، حتى تكون شيئا واحدا و جديدا، لا تلاحظ فيه حال المفردات التي كونت هذا الكل، و إنما تمحى أوصاف الجزء، وكأنها تفاعلت تفاعلا كيميائيا، ذهبت فيه

[399] سورة الجمعة، الآية 5.

[400] عبد القاهر الجرجاني: " أسرار البلاغة "، ص 101.

[401] عبد العظيم المطعني : " التشبيه و التمثيل "، ص 29، وعلي عشري زايد: " البلاغة العربية.... "، ص 117-118.

خواص المادة الداخلية في التركيب، ونتج من هذه المواد المتفاعلة، والتي ذهبت خصائصها، تركيبة لغوية جديدة هي التي تعتبر في الدلالة البلاغية، وكأنك لا تدرك المراد من الألفاظ التي تكتبها أوتقرؤها، لأن هذه الألفاظ تذوب في البناء الكلي للتركيب اللغوي الذي يصبح شيئا غير هذه الجزيئات، وعليك أيها القارئ أن تستحضر هذا التركيب، وأن تستحضر السياق و القرائن، حتى يعينك على استخلاصه، وهذا من أغرب ما قرأته، ولم أقرأه لغير عبد القاهر..."[402]

ج- وجه شبه عقلي تمثيلي متعدد: و قد مثل عبد القاهر لهذا النوع، فقال : "ومثال ما يجيء فيه التشبيه معقودا على أمرين إلا أنهما لا يتشابكان هذا التشابك، قولهم: "هو يصفو ويكدر"، "ويمُرُّ ويحلو"، "ويشُجُّ ويأسو "، "ويُسرِج ويُلجِم "، لأنك وإن كنت أردت أن تجمع له الصفتين، فليست إحداهما ممتزجة بالأخرى، لأنك لو قلت: " هو يصفو "، ولم تتعرض لذكر الكدر، أو قلت "يحلو "، ولم يسبق ذكر "يمر "، وجدت المعنى في تشبيهك له بالماء في الصفاء و بالعسل في الحلاوة بحاله وعلى حقيقته، وليس كذلك الأمر في الآية... "[403]

وقد ذكر عبد القاهر الفرق بين الآية السابقة وهذا المثال، وهو أن المثال يصح فيه الاكتفاء بأحد الوصفين، فإذا قلت: فلان يصفو، أو يحلو، فقد وقع تمثيلك صحيحا، إذ لا ينكر تشبيه الرجل بالماء في الصفاء، أو بالعسل في الحلاوة... ولا يصح ذلك في الآية، لأنه يشترك فيها أن يكون الحامل حمارا، وأن يكون المحمول كتب علم، وأن يقترن بهذين جهل الحمار بمضمون ما حمل. وخلاصة القول هنا: أنك في التمثيل أو التشبيه المتعدد، يصح الاكتفاء بأحد الوصفين، وفي التمثيل أو التشبيه المركب لا يصح.[404]

وقد ذكر الدكتور شوقي ضيف أن المثال السابق، وهو قولهم : " هو يصفو ويكدر"، هو من باب الاستعارة المكنية، إذ أضيفت إلى الشخص لازمتان من لوازم الماء، هما الصفو و الكدر...[405]. فهذا

[402] محمد أبو موسى: " مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني "، ص 380. وعبد العظيم المطعني: " التشبيه والتمثيل"، ص 29.
[403] عبد القاهر الجرجاني: " أسرار البلاغة "، ص 102-103.
[404] عبد العظيم المطعني : " التشبيه و التمثيل "، ص 30.
[405] شوقي ضيف: " البلاغة تطور و تاريخ "، ص 196.

المثال، وإن ذكره عبد القاهر في التشبيه، إلا أنه لم يقصد أنه من التشبيه الاصطلاحي، بل هو من قبيل الاستعارة المكنية، والاستعارة أساسها التشبيه، فهو موجود وفي كل استعارة، أي هو تشبيه معنوي باعتبار أصله، أما الآن في هذا المثال، فهو استعارة. [406]

4- التمثيل المركب:

لقد تحدث عبد القاهر في "الأسرار"-بشيء من الإسهاب- عن التشبيه التمثيلي المركب، وتناوله من عدة جوانب قاصدا بذلك إيضاحه، وتميزه، وبيان أنه أحق من غيره وأجدر باسم "التمثيل"...ويمكن تلخيص حديثه عن التمثيل المركب في النقاط التالية:

أ - التمثيل المركب بم يكون؟: وهذا –كما ذكر الدكتور المطعني- ملحظ دقيق فطن إليه عبد القاهر، فقد فرق –في وضوح- بين التمثيل المفرد، والتمثيل المركب. فالتمثيل المفرد هو ما كان وجه الشبه فيه لأمر يرجع إلى نفسه، والمركب ما كان الشبه فيه لأمر لا يرجع إلى نفسه... [407]، قال عبد القاهر: " اعلم أن الشبه إذا انتزع من الوصف، لم يخل من وجهين:

- أحدهما: أن يكون لأمر يرجع إلى نفسه.
- والآخر أن يكون لأمر لا يرجع إلى نفسه "[408]

وقد مثل للأول "بتشبيه الكلام بالعسل في الحلاوة "، لأن كلا من الكلام الجميل والعسل يوجب في النفس لذة وحالة محمودة. وإذا تأملت الوجه هنا وجدته في الحلاوة نفسها، ولا يتوقف تحصيله على أمر آخر زائد عليها...[409]

أما الثاني – أي التمثيل المركب- وهو ما يكون الشبه فيه لأمر لا يرجع إلى نفسه، أي أنه يتوقف على لواحق توجب حصوله، ولا يكتفى فيه بلفظ دون لفظ [410]... "فمثاله أن يتعدى الفعل إلى شيء

---

[406] عبد العاطي غريب علام: "دراسات في البلاغة العربية "، ص 106.
[407] عبد العظيم المطعني: " التشبيه و التمثيل "، ص 30.
[408] عبد القاهر الجرجاني: " أسرار البلاغة "، ص 104.
[409] عبد العظيم المطعني: " التشبيه و التمثيل "، ص 30.

مخصوص يكون له من أجله حكم خاص، نحو كونه واقعا في موقعه وعلى الصواب، أو واقعا غير موقعه..."[411]، يعني أن تعدي الفعل إلى الشيء المخصوص لازم في التمثيل المركب، وأن ذلك التعدي يكسبه حكما، لولا التعدي ما كان ذلك الحكم...[412]

وقد مثل عبد القاهر للتمثيل المركب بأمثلة عديدة[413]، منها:

- قولهم : " هو كالقابض على الماء "، " والراقم في الماء "، فالشبه في هذا القول منتزع مما بين القبض والماء و الرقم، وليس بمنتزع من القبض نفسه، أو من الرقم ذاته، لأن فائدة القبض أن يحصل الشيء في اليد و يظل بها، و فائدة الرقم أن يبقى أثر الشيء، فعندما يكون المقبوض عليه أو المرقوم عليه ماء، فقد انتفت الفائدة من القبض والرقم، فالذي يعمل عملا لا يحصل منه على فائدة، تشبه حالته هذه، فيقال: هو كالقابض على الماء، وكالراقم فيه... قال مجنون ليلى: [414]

فَأَصْبَحْتُ مِنْ لَيلَى الْغَداةَ كَقَابِضٍ   علَى الماءِ خانَتْهُ فُرُوجُ الأَصابِعِ

فقد شبّه خيبة مسعاه وعدم حصوله على قصده من ليلاه، بحال من قبض بيده على ماء، فإذا بالماء قد تسرب من بين شقوق الأصابع، ولم يحصل هو على طائل...[415]

وكذلك قولهم:"يضرب في حديد بارد"،و"ينفخ في غير فحم"، وكذا قولهم:" أخذ القوس باريها"، وهو مثل:"ويضرب لمن يسند إليه أمر، هو جدير به وخبير"[416].

---

[410] المرجع نفسه، ص 30-31.

[411] عبد القاهر الجرجاني: " أسرار البلاغة "، ص 104.

[412] عبد العظيم المطعني: " التشبيه و التمثيل "، ص 31.

[413] عبد القاهر الجرجاني: " أسرار البلاغة "، ص 104. و ما بعدها

[414] كذا أورده الجرجاني في "الأسرار"، ص 124...وذكر محمود شاكر – في هامش الصفحة المذكورة – أن هذا البيت ملفق من بيتين، بيت مجنون ليلى:

فأصبحت من ليلى الغداة كناظر   مع الصبح في أعقاب نجم مغرب

وقول معاذ العقيلي:

أجرت فلم تمنع، وكنت كقابض   على الماء خانته فروج الأصابع

وينظر:قيس بن الملوح:" الديوان"برواية أبي بكر الوالبي/تحقيق:يسري عبد الغني/ دار الكتب العلمية/بيروت/ط1: 1999/ص 81.

[415] عبد الفتاح فيود: "دراسات بلاغية " ص 165-166.

[416] المرجع نفسه، ص 166.

فالشبه في هذه الصورة : " أخذ القوس باريها " ليس مأخوذا من مجرد الأخذ، ولكن منه باعتبار وقوعه على مفعول (القوس)، ووقوعه من فاعل مخصوص (باريها)، ولذلك فانك حين تقول: " أخذ" وتسكت، لا تفيد شيئا من المراد هنا، وإذا قلت: "أخذ القوس ولم تذكر الفاعل المخصوص (باريها) قصر كلامك عن المراد، وعندما تقول: "أخذ القوس باريها "، فقد جئت بالحسن كله والصواب كله.[417]

وكقولهم: "ما زال يفتل منه في الذروة والغارب "، يقولونه في تشبيه حسن احتيال الإنسان ليصل إلى ما يريده من بخيل يتأبى عليه البذل و العطاء... فالشبه في هذا القول قد انتزع مما بين الفتل وما تعدى إليه من الذروة والغارب، لأنه لا يوجد في الفتل من حيث هو فتل، و إنما يوجد في الفتل إذا وقع في الشعر من ذروة البعير وغاربه... [418]

ولا يخفى أن هذه الأمثلة استعارات تمثيلية مركبة... [419]، وقد أورد عبد القاهر بعضها في "دلائله" ممثلا بها للتمثيل الذي يجئ على حد الاستعارة...[420]

- ومن ذلك قولهم أيضا: " هو كالحادي وليس له بعير"، و"أنت كمن يجمع السيفين في غمد"، و"هو كثير الجور على إلفه"، و"هو كمبتغي الصيد في عريسه الأسد".

- ومن ذلك آية الجمعة السابقة، وهي قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ...﴾ الآية...

وخلاصة القول هنا "أن وجه الشبه في التشبيه التمثيلي المركب قد ينتزع مما بين الفعل والجار والمجرور، كقولهم : "هو كمن يخط في الماء "، أو مما بين الفعل و الفاعل والمفعول، كقولهم: " أخذ القوس باريها "، أو مما بين الفعل و مفعوليه كقوله: " أعط القوس باريها "، أو مما بين الفعل و مفعوله و الجار والمجرور، كما في قولهم: " هو كمبتغي الصيد في عرّيسة الأسد "، "هو كمن يجمع سيفين في غمد" ، فالوجه لم ينتزع مما بين الفعل و مفعوله حتى يلاحظ تقييده بالجار و المجرور، لأن المستحيل ليس جمع السيفين، بل جمعهما في غمد واحد، والممتنع ليس طلب الصيد، بل طلبه من بيت الأسد... كما قد ينتزع مما بين

417 عبد العظيم المطعني : " التشبيه و التمثيل "، ص 31.

418 عبد الفتاح فيود : "دراسات بلاغية " ص 166.

419 عبد العاطي علام : " دراسات في البلاغة العربية "، ص 132.

420 عبد القاهر الجرجاني : " دلائل الإعجاز "، ص 69.

الحال وصاحبها كما في الآية الكريمة: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾، حيث انتزع الوجه مما بين الحمار والجملة الحالية "يحمل أسفارا "، فلابد من ملاحظة "الحمار"، والفعل "يحمل"، والمحمول "أسفارا "...ومنه قولهم: "كالحادي ليس له بعير "، حيث انتزع الوجه مما بين "الحادي " والجملة الحالية: " وليس له بعير"...[421]

وهذه الأمثلة كلها قد انتزع فيها وجه الشبه من جملة واحدة، و قد ينتزع التشبيه التمثيلي من جملتين أو أكثر... وحينئذ يكون أدخل في باب التمثيل من غيره، كما سيذكر عبد القاهر، و فيما يلي بيان ذلك:

ب - التشبيه الأحق باسم التمثيل: وقد بين عبد القاهر رأيه في المسألة، وجلاها بقوله: " وعلى الجملة فينبغي أن تعلم أن المثل الحقيقي، و التشبيه الذي هو الأولى بأن يسمى "تمثيلا "، لبعده عن التشبيه الظاهر الصريح، ما تجده لا يحصل لك إلا من جملة من الكلام أو جملتين أو أكثر، حتى إن التشبيه كلما كان أوغل في كونه عقليا محضا، كانت الحاجة إلى الجملة أكثر، ألا ترى إلى نحو قوله عز و جل: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَـٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾[422]، كيف كثرت الجمل فيه؟ حتى إنك ترى في هذه الآية عشر جمل إذا فصّلت. وهي وإن كان قد دخل بعضها في بعض حتى كأنها جملة واحدة، فان ذلك لا يمنع من أن تكون صور الجمل معنا حاصلة تشير إليها واحدة واحدة . ثم إن الشبه منتزع من مجموعها، من غيرأن يمكن فصل بعضها عن بعض، و إفراد شطر من شطر، حتى إنك لو حذفت منها جملة واحدة من أي موضع كان، أخل ذلك بالمغزى من التشبيه. [423]

---

[421] عبد الفتاح فيود: "دراسات بلاغية " ص 167-168.

[422] سورة يونس، الآية 24.

[423] عبد القاهر الجرجاني: " أسرار البلاغة "، ص 108، 109

قال الدكتور غريب علام معلقا على كلام عبد القاهر هذا: " أي إن التشبيه كلما كان أكثر جملا، كان أوغل في كونه عقليا، أي كانت حاجته إلى العمل العقلي أكثر... ربما أن يكون عبد القاهر هو قصد ذلك، و لم يقصد أن الإيغال في كونه عقليا محضا يحتاج إلى جمل أكثر، لأن الواقع أن كثرة الجمل في التشبيه وقلتها ليست تابعة للعقلية والحسية، ولكنها تابعة للمعاني التي يستدعي الغرض تأليف التشبيه منها، فقد يستدعي الغرض تأليفه من جملة، و قد يستدعي تأليفه من أكثر " [424]، و هذا الأمر حسب الدكتور غريب –يظهر بوضوح إذا وازنا بين آية "يونس " السابقة، و بين قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾[425]...قال:"فأساس التشبيهين ومغزاهما واحد، وهو التحذير من الاغترار بالدنيا ونعيمها، وتأكيد سرعة زوالها، و لكن لوحظ في التشبيه الأول أمور اقتضت كثرة جمله، ولم تلاحظ في الثاني، منها: إفادة عموم النفع، و جمال الأرض وبهجتها، ومنها: اغترار الناس بها، واعتمادهم عليها، وظنهم أنهم قادرون عليها متمكنون منها، و أنها قد سلمت من الآفات، فزيادة الجمل في الآية الأولى جاءت من إرادة هذه المعاني، لا من التوغل في العقلية كما قد يفهم من عبارة عبد القاهر السابقة "[426].

وذكر الدكتور بدوي طبانة أن قول عبد القاهر السابق، قد يفهم منه أنه يشترط في التشبيه لكي يعد تمثيلا أن يكون مركبا، وقد يؤيد هذا الرأي الأمثلة التي أوردها للتمثيل في كتابة "دلائل الإعجاز "، و كلها يتركب فيه الشبه..."[427]، "وربما كان هذا هو الذي أغرى المتأخرين باعتبار التركيب في التمثيل، لأن الشيخ قال هو الجدير باسم التمثيل"[428]... ولعل من هؤلاء السكاكي... فإنه خص التمثيل بالمركبات العقلية، وجعل ما عداها تشبيها...[429]

[424] عبد العاطي علام: " دراسات في البلاغة العربية "، ص 106-107.

[425] سورة الكهف، الآية 45.

[426] غريب علام: " دراسات في البلاغة العربية "، ص 107.

[427] بدوي طبانة: " علم البيان "ن ص 94-95.

[428] محمد أبو موسى: " مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني "، ص 383.

[429] عبد الفتاح فيود: "دراسات بلاغية " ص 192-193.

وفي العصر الحديث... نجد الدكتور شوقي ضيف يصرح بذلك، فيقول- بعد أن تحدث عن التشبيه والتمثيل عند عبد القاهر: "... ويؤخذ من مجموع كلامه هنا أن التمثيل يختص بالتشبيهات المركبة التي يكون فيها وجه الشبه عقليا منتزعا من عدة أمور يجمع بعضها إلى بعض، ثم يستخرج من مجموعها، كالآية الكريمة﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾..."[430]، ويؤكد هذا الأمر عند دراسته لكتاب السكاكي في البلاغة[431].

والحقيقة أن رأي عبد القاهر الواضح-كما ذكر الدكتور طبانة- هو أنه يشترط في التشبيه لكي يكون تمثيلا، أن يكون الوجه فيه عقليا غير حقيقي من غير نظر إلى إفراده أو تركيبه، وقد مثل له بالمركب، كما مثل له بالمفرد[432]، أما الأمثلة التي أوردها في"الدلائل"،فقد صرح أنها من التمثيل الذي يكون مجازا لمجيئك به على حد الاستعارة، أوما يسمى عند البلاغيين"الاستعارة التمثيلية "، وهذه لا تكون إلا مركّبة.[433]

ج- ما يوهم ظاهره جواز الفك: [434]

لقد أشار عبد القاهر أثناء حديثه عن التشبيه التمثيلي المركب إلى بعض خصائص هذا النوع، ومن أبرزها: أنه يمتنع فك التركيب الذي هو عليه... [435]، ومن أوضح الأمثلة على ذلك آية "يونس " السابقة... ثم أراد أن يزيد هذا الأمر إيضاحا، فذكر من المركب ضربا قد يتوهم فيه أنه يكتفي بشرط الصورة، ولكن المراجعة وحسن التأمل يأبى ذلك التشطير، ويؤكد ضرورة اعتبار أجزاء الصورة مكتملة..."[436]

---

[430] شوقي ضيف: " البلاغة تطور و تاريخ "، ص 196.

[431] المرجع نفسه، ص 303.

[432] بدوي طبانة: " علم البيان "ن ص 95. وأحمد مطلوب: " عبد القاهر الجرجاني، بلاغته و نقده / وكالة المطبوعات / الكويت / ط1 : 1973 / ص 135-136.

[433] بدوي طبانة: " علم البيان "ن ص 95.

[434] عبد العظيم المطعني: " التشبيه و التمثيل "، ص 35.

[435] المرجع السابق، ص 34.

[436] محمد أبي موسى: " مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني "، ص 383.

وفي ذلك يقول عبد القاهر: " وقد يجئ الشيء من هذا القبيل يتوهم فيه أن إحدى الجملتين أو الجمل تنفرد وتستعمل بنفسها تشبيها وتمثيلا، ثم لا يكون كذلك عند حسن التأمل..." [437]، ومثل لذلك بقول كثير عزة: [438]

كَمَا أَبْرَقَتْ قَوماً عِطَاشاً غَمَامَةٌ   فَلَمَّا رَجَوْهَا أَقْشَعَتْ وَ تَجَلَّتِ

يشبه كثير عزة حاله مع عزة، وقد أطعمته بالوصال في أول أمره، ثم فاجأته بالحرمان بحال قوم أخذهم الظمأ، فأبصروا غمامة فوقهم تبرق مؤذنة بإنزال الغيث، ثم سرعان ما تولت و كانوا قد طمعوا في نوالها. [439]

قال عبد القاهر: " و قد يمكن أن يقال: إن قولك: " أبرقت قوما عطاشا غمامة "، تشبيه مستقل بنفسه، لا حاجة به إلى ما بعده من تمام البيت في إفادة المقصود الذي هو ظهور أمر مطمع لمن هو شديد الحاجة، إلا أنه و إن كان كذلك، فان حقنا أن ننظر في مغزى المتكلم في تشبيهه. ونحن نعلم أن المغزى أن يصل ابتداء مطمعا بانتهاء مؤيس، و ذلك يقتضي وقوف الجملة الأوّلة على ما بعدها من تمام البيت..."[440]

قال الدكتور المطعني:"يعني أن جملة"كما أبرقت قوما عطاشا غمامة "وحدها لا تفيد ما قصده الشاعر من وصل اليأس بالرجاء، وهذا كلام طيب، ومعنى دقيق فطن إليه الإمام، ولم يفطن إليه غيره"[441].

د- أبرز العناصر في التشبيه التمثيلي المركب [442]: وهذا أمر آخر فطن له عبد القاهر، وهو أن أبرز عنصر في الصورة المشبه بها، هو الذي يلي أداة التشبيه... وقرر أن هذا العنصر لا يجوز حذفه... [443] وفي ذلك يقول : "واعلم أن "المثل " قد يضرب بجمل لابد فيها من أن يتقدمها مذكور يكون مشبها به، ولا يمكن حذف المشبه به والاقتصار على ذكر المشبه، ونقل الكلام إليه حتى كأنه صاحب الجملة، إلا أنه

437 عبد القاهر الجرجاني: " أسرار البلاغة "، ص 110.

438 كثيّر عزّة: "الديوان "/شرح: إحسان عباس/دار الثقافة/بيروت/1971/ص 107

439 عبد العظيم المطعني : " التشبيه و التمثيل "، ص 35.

440 عبد القاهر الجرجاني: " أسرار البلاغة "، ص 110-111.

441 عبد العظيم المطعني: " التشبيه و التمثيل "، ص 36.

442 المرجع نفسه، ص 38.

443 المرجع نفسه، ص 38.

مشبه بمن صفته وحكمه مضمون تلك الجملة" [444]، واستدل على ذلك بالماء في قوله تعالى ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾الآية، قال: " لو أردت أن تحذف "الماء " الذي هو المشبه به، وتنقل الكلام إلى المشبه الذي هو "الحياة " أردت ما لا تحصل منه على كلام يعقل، لأن الأفعال المذكورة المحدث بها عن الماء، لا يصح إجراؤها على الحياة، فاحفظ هذا الأصل..." [445]، و استدل أيضا بقوله صلى الله عليه وسلم : " الناس كإبل مائة، لا تكاد تجد فيها راحلة " "...قال: "لابد فيه من المحافظة على ذكر المشبه به الذي هو"الإبل "، فلو قلت: " الناس لا تجد فيهم راحلة " أو " لا تجد في الناس راحلة"، كان ظاهر التعسف "[446].

5- المماثلة والمثل والتمثيل:

لقد رأى عبد القاهر–بعد بيانه لحقيقة التمثيل كما رياها- أن يدفع وهما قد يتوهمه البعض إذا ما سمع أو قرأ أن أبا أحمد العسكري-خال أبي هلال وأستاذه- يطلق على نحو: " أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى "، و"أنت ترقم في الماء "...اسم "المماثلة"، فيظن أنها شيء آخر غير التمثيل...فأراد الجرجاني أن "يوضح أن هذه التسمية لا تعني أن ذلك النوع من الكلام شيء غير المثل والتمثيل..."[447]

وفي ذلك يقول عبد القاهر: "وذكر أبو أحمد العسكري أن هذا النحو من الكلام يسمى"المماثلة"، وهذه التسمية توهم أنه شيء غير المراد"بالمثل" و"التمثيل"، وليس الأمر كذلك، كيف وأنت تقول:"مثلك مثل من يقدم رجلا ويؤخر أخرى؟، ووِزان هذا أنك تقول: "زيد الأسد "، فيكون تشبيها على الحقيقة، وإن كنت لم تصرح بحرف التشبيه. ومثله أنك تقول: " أنت ترقم في الماء "، و"تضرب في حديد بارد"، وتنفخ في غير فحم"، فلا تذكر ما يدل صريحا على أنك تشبه، ولكنك تعلم أن المعنى على قولك: " أنت

[444] عبد القاهر الجرجاني: " أسرار البلاغة "، ص 113.
[445] عبد القاهر الجرجاني: " أسرار البلاغة "ص 114.
[446] المصدر نفسه، ص 113.
[447] عبد الفتاح فيود: "دراسات بلاغية " ص 183.

كمن يرقم في الماء، وكمن يضرب في حديد بارد، وكمن ينفخ في غير فحم"، وما أشبه ذلك مما تجئ بمشبه به ظاهر تقع هذه الأفعال في صلة اسمه أوصفته"[448].

وقد سبق في الفصل الأول بيان أن "المماثلة " عند أبي هلال العسكري – والتي يرجح أنه جلبها من رسالة خاله وأستاذه أبي أحمد العسكري – هي "التمثيل"عند غيره، وقد تقدمت هناك أدلة ذلك.

6- التمثيل الذي يكون مجازا:

إن المتأمل في الشواهد التي استشهد بها عبد القاهر للتمثيل، يلاحظ أن منها ما جاء في صورة التشبيه، وهو حقيقة لغوية. . ومنها ما جاء في صورة الاستعارة، وهي مجاز لغوي، نحو قولهم لمن يتردد في الأمر: "أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى"، وكذا قولهم: "أخذ القوس باريها "، و"يضرب في حديد بارد"، و"ينفخ في غير فحم "، ونحو ذلك.

وقد صرح عبد القاهر في "دلائل الإعجاز " بأن التمثيل قد يكون مجازا "وإنما يكون "التمثيل" مجازا إذا جاء على حد الاستعارة "[449]، وبين هذا الأمر بقوله: " وأما "التمثيل " الذي يكون مجازا لمجيئك به على حد الاستعارة، فمثاله قولك للرجل يتردد في الشيء بين فعله و تركه: " أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى ". فالأصل في هذا: أراك في ترددك كمن يقدم رجلا ويؤخر أخرى، ثم اختصر الكلام، وجعل كأنه يقدم الرجل ويؤخرها على الحقيقة. كما كان الأصل في قولك: " رأيت أسدا ": رأيت رجلا كالأسد، ثم جعل كأنه الأسد على الحقيقة. وكذلك تقول للرجل يعمل في غير معمل: "أراك تنفخ في غير فحم"، و"تخط على الماء "، فتجعله في ظاهر الأمر كأنه ينفخ و يخط، والمعنى على أنك في فعلك كمن يفعل ذلك..."إلى آخر ما مثل به. [450]

[448] عبد القاهر الجرجاني: " أسرار البلاغة "، ص 113.
[449] عبد القاهر الجرجاني: " دلائل الإعجاز "، ص 67.
[450] عبد القاهر الجرجاني: " دلائل الإعجاز "، ص 68-69.

والملاحظ على الأمثلة التي مثل بها، أنها تدخل تحت ما سماه المتأخرون"الاستعارة التمثيلية أو "الاستعارة المركبة "، وهي"تركيب استعمل في غير ما وضع له، لعلاقة المشابهة، مع قرينة مان عة من إرادة المعنى الأصلي "[451].

451 عبد العزيز عتيق: " علم البيان "، ص 132.

♦ الفروق بين التشبيه والاستعارة والتمثيل:

لقد عقد عبد القاهر الجرجاني في كتابه "أسرار البلاغة " فصولا عديدة، أثبت فيها جملة من الفروق المميزة بين التشبيه والتمثيل من جهة، وبين التمثيل والاستعارة من جهة أخرى... وغرضه من ذلك تجليه الفروق الفاصلة بينها، وتوضيح العلاقات التي تربط بينها... وفيما يلي بيان ذلك:

***الفروق بين التمثيل و التشبيه:**

—الفرق الأول: ويمكن تسميته بالفرق الأساس أو الرئيس، وهو ما سبق بيانه من أن التشبيه هو ما كان وجه الشبه فيه أمرا بينا بنفسه، لا يحتاج إلى تأويل وصرف عن الظاهر... والتمثيل ما لا يكون وجهه أمرا بينا بنفسه، بل يحتاج تحصيله إلى ضرب من التأول وصرف عن الظاهر... أي أن عبد القاهر قد اعتمد في تفريقه بين التشبيه و التمثيل على وضوح وجه الشبه وخفائه، وعلى مدى وجوده وتحققه في الطرفين... وقد مضى بيان ذلك مفصلا.

—الفرق الثاني:وقد بينه عبد القاهر بقوله:"وإذ قد عرفت الفرق بين الضربين، فاعلم أن التشبيه عام،والتمثيل أخص منه، فكل تمثيل تشبيه، وليس كل تشبيه تمثيلا،فأنت تقول في قول قيس بن الخطيم:

وَقَدْ لاحَ فِي الصُّبْحِ الثُّرَيَّا لِمَنْ رَأَى كَعُنْقودِ مُلَّاحِيَّةٍ حِينَ نَوَّرَا

إنه:"تشبيه حسن"، ولا تقول: هو "تمثيل"..."[452]

أي أن التمثيل يصح لك أن تطلق عليه اسم التشبيه؛لأنه أحد صوره، وإذا أطلقت كلمة التشبيه، شملت التمثيل وغير التمثيل؛ لأن التشبيه أعم من التمثيل، والأعم يشمل الأخص. أما التشبيه فلا يقال إنه تمثيل؛ لأن الأعم لا يطلق عليه معنى الأخص...فالتشبيه والتمثيل يجتمعان في نحو:" ألفاظه كالعسل في الحلاوة "، وينفرد التشبيه في نحو تشبيه الخد بالورد في الحمرة...[453]

---

[452]عبد القاهر الجرجاني: " أسرار البلاغة "، ص 95.

[453] عبد العظيم المطعني: " التشبيه و التمثيل "، ص 23-24.

فالعلاقة بين التشبيه والتمثيل هي علاقة العموم والخصوص، ولعل مراد عبد القاهر بالتشبيه هنا-كما ذكر الدكتور فيود- التشبيه بمعناه الاصطلاحي الذي عرف عند البلاغيين، وهو مجرد إلحاق أمر بآخر في معنى مشترك بينهما بأداة، فبين التشبيه والتمثيل بهذا المعنى : علاقة العموم والخصوص، بمعنى أنه يجوز إطلاق لفظ "التشبيه " على "التمثيل "، كما يجوز إطلاقه على التشبيه الظاهر الصريح، ولكن هذا الإطلاق عام في التشبيه الظاهر، خاص في التمثيل...[454]

وعلى هذا الأساس قسم عبد القاهر بعض الشعراء إلى: شعراء تشبيه كابن المعتز، وإلى شعراء تمثيل كصالح بن عبد القدوس...[455] وهذه نظرة دقيقة، حيث بين أن التشبيه يكثر عند بعض الشعراء ويقل التمثيل، ويكثر التمثيل عند البعض ويقل التشبيه... فابن المعتز قد كثر في شعره التشبيهات الحسية واشتهر بها، وأحسن فيها أكثر من إحسانه في التشبيهات المعنوية والعقلية، ولذا يقال : ابن المعتز حسن التشبيهات بديعها...وصالح بن عبد القدوس قد كثر في شعره التشبيهات المعنوية والعقلية واهتم بها أكثر من اهتمامه بالحسيات، ولذا يقال : صالح عبد القدوس كثير الأمثال في شعره...[456].

- الفرق الثالث: وقد أشار إليه عبد القاهر بقوله: " وكل ما لا يصح أن يسمى"تمثيلا"، فلفظ "المثل" لا يستعمل فيه أيضا، فلا يقال: "ابن المعتز حسن الأمثال"، تريد به نحو الأبيات التي قدمتها، وإنما يقال: "صالح بن عبد القدوس كثير الأمثال في شعره"، يراد نحو قوله:

وَإِنَّ مَنْ أَدَّبْتَهُ فِي الصِّبَا   كَالعُودِ يُسْقَى المَاءَ فِي غَرْسِهِ

حَتَّى تَرَاهُ مُورِقاً نَاضِراً   بَعدَ الذِي أَبْصَرْتَ مِنْ يُبْسِهِ

وما أشبهه مما الشبه فيه من قبيل ما يجري فيه التأول... "[457]

[454] عبد الفتاح فيود: "دراسات بلاغية " ص 161-162.

[455] عبد القاهر الجرجاني: " أسرار البلاغة "، ص 95 و ما بعدها.

[456] عبد العاطي غريب علام : " دراسات في البلاغة العربية "، ص 110.

[457] عبد القاهر الجرجاني: " أسرار البلاغة "، ص 97.

وهذه –كما ذكر الدكتور المطعني– إضافة جديدة لدرس التمثيل، يضيفها عبد القاهر...وحاصل هذه الإضافة أن من جملة الفروق بين التمثيل و التشبيه، أن التمثيل يحسن أن يطلق عليه لفظ"المثل" و"الأمثال"، أما التشبيه فلا يصح فيه ذلك.[458]

ولكن، وإن كان يحسن أن يطلق على "التمثيل " لفظ "المثل"...فإن بينهما فروقا عديدة، تتبعها بدقة الدكتور المطعني، وبينها بيانا شافيا...[459]

ومما تقدم يتضح لنا أن عبد القاهر قد فرق بين التشبيه والتمثيل بأن التشبيه وجه الشبه فيه بين ظاهر محقق في كلا الطرفين، فلا يحتاج إلى تأويل وصرف عن الظاهر، ولا يصح أن يطلق عليه لفظ"المثل" أو"الأمثال". أما التمثيل فوجه الشبه فيه غير بين، بل به خفاء يتفاوت من تمثيل لآخر، وقد احتاج من أجل ذلك الخفاء إلى تأمل وتأول وصرف عن الظاهر، حتى نصل إلى الوجه الذي يتحقق وجوده في كلا الطرفين وقد صح لهذا وحسن وراق أن يطلق لفظ "المثل"و"الأمثال"على التشبيهات التمثيلية.[460]

– الفرق الرابع: وهو فرق دقيق، ذكره عبد القاهر على أنه الأصل الذي بنى عليه تقسيم التشبيه إلى تمثيل وغير تمثيل، حتى يؤكد ضرورة هذا التقسيم، وأنه ليس من صواب الفهم أن يكونا سواء...[461] وهو" أن التشبيه يشترك طرفاه في جنس وجه الشبه ونفس الصفة التي جمعت بينهما، أما التمثيل فان طرفيه يشتركان في لازم الصفة ومقتضاها، لا في حقيقتها وذاتها، فقولنا: " خدّ كالورد " تشبيه، حيث اشترك طرفاه في جنس الحمرة وحقيقتها. أما قولنا: "كلام ألفاظه كالعسل حلاوة " فتمثيل، لأن

[458] عبد العظيم المطعني: " التشبيه و التمثيل "، ص 24-25.

[459] المرجع نفسه، ص 86 و ما بعدها.

[460] عبد الفتاح فيود: "دراسات بلاغية " ص 164.

[461] محمد أبو موسى: " مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني "، ص 377.

الطرفين لم يشتركا في جنس الحلاوة، بل في لازمها ومقتضاها، أي الحكم والأثر الناتج عنها، وهو اللذة والاستطابة وميل النفس...[462]

وفي ذلك يقول عبد القاهر: " اعلم أن الذي أوجب أن يكون في التشبيه هذا الانقسام، أن الاشتراك في الصفة يقع مرة في نفسها وحقيقة جنسها، ومرة في حكم لها ومقتضى. فالخد يشارك الورد في الحمرة نفسها، وتجدها في الموضعين بحقيقتها، واللفظ يشارك العسل في الحلاوة، لا من حيث جنسه، بل من جهة حكم وأمر يقتضيه، وهو ما يجده الذائق في نفسه من اللذة، والحالة التي تحصل في النفس إذا صادفت بحاسة الذوق ما يميل إليه الطبع ويقع منه بالموافقة..."[463]

وهذه الفلسفة -كما يقول الدكتور المطعني - من نتاج الإمام عبد القاهر، وثمرة طيبة من اتجاهه الذوقي التحليلي للأساليب، وسبر غورها، واقتناص شوارد المعاني وغوامض الأسرار.[464]

وقد خلص عبد القاهر من تحليلاته السابقة إلى نتيجة مهمة، وهي أن التشبيه أصل، والتمثيل فرع "مرتب عليه"، ولم يرسل القول في هذا إرسالا، بل إنه يأخذ بيدك ويجلي لك الأمر حتى يقنعك بما يقول..[465] قال:"وإذا تقررت هذه الجملة حصل من العلم بها أن التشبيه الحقيقي الأصلي هو الضرب الأول، وأن هذا الضرب فرع له ومرتب عليه. ويزيد ذلك بيانا: أن مدار التشبيه على أنه يقتضي ضربا من الاشتراك، ومعلوم أن الاشتراك في نفس الصفة، أسبق في التصور من الاشتراك في مقتضى الصفة، كما أن الصفة نفسها مقدّمة في الوهم على مقتضاها، فالحلاوة أولا، ثم إنها تقتضي اللذة في نفس الذائق لها...".[466]

---

[462] عبد الفتاح فيود:"دراسات بلاغية" ص 164. وعبد العاطي غريب علام: " البلاغة العربية بين الناقدين الخالدين "، ص 167، و"دراسات في البلاغة العربية "، ص 105.

[463] عبد القاهر الجرجاني: " أسرار البلاغة "، ص 98.

[464] عبد العظيم المطعني: " التشبيه و التمثيل "، ص 26.

[465] عبد العظيم المطعني: " التشبيه و التمثيل "،ص27، وعبد العاطي غريب علام:" البلاغة العربية بين الناقدين الخالدين"، ص167.

[466] عبد القاهر الجرجاني: " أسرار البلاغة "، ص 99.

-الفرق الخامس: من الفروق التي ذكرها عبد القاهر بين التمثيل والتشبيه الصريح: "أنك بالتمثيل في حكم من يرى صورة واحدة، إلا أنه يراها تارة في المرآة، وتارة على ظاهر الأمر، وأما في التشبيه الصريح، فانك ترى صورتين على الحقيقة "[467].

أي أنك بالتمثيل في حكم من يرى صورة من الصور، ولكنه يراها تارة على حقيقتها وأخرى في المرآة، ومن هنا أخذ اسم التمثيل، أما في التشبيه فأنت ترى صورتين حقيقيتين في كل من المشبه والمشبه به. فإذا قلت:"خد كالورد في الحمرة"، ترى حمرة الخد حقيقة ماثلة، وترى حمرة الورد كذلك، ولا تتوقف معرفة إحداهما على وجود الأخرى بجوارها... وأما نحو: "كلامه كالعسل في الحلاوة "، فإنك وإن أثبت الحلاوة للطرفين، فليس هناك في الحقيقة إلا صورة واحدة تراها على حقيقتها في العسل، وأما حلاوة الكلام فتأتي بالتأول، فهي صورة معكوسة لحلاوة العسل، وليس لها وجود في ذاتها، فالتجوز في إثبات الحلاوة والكلام، ولو قلنا:" كلامه كالعسل في ميل النفس إليه" لم يكن هناك تجوز لأن ميل النفس موجود في الطرفين...[468]

-الفرق السادس: وهو فرق يضيف به عبد القاهر جديدا، يجلي به جانبا من جوانب الاختلاف بين التشبيه والتمثيل... إنه وحده هو الذي بدأ القول فيه، ومضى فيه أشواطا بعيدة...ذلك هو: مرونة القلب في التشبيه وعكسها في عكسه...[469]

وفي ذلك يقول عبد القاهر: " اعلم أني قد عرّفتك أن كل تمثيل تشبيه، وليس كل تشبيه تمثيلا، وثبّت وجه الفرق بينهما. وهذا أصل إذا اعتبرته وعرضت كل واحد منهما عليه فوجدته يجيء مجيئا حسنا، وينقاد القياس فيه انقيادا لا تعسف فيه، ثم صادفته لا يطاوعك في التمثيل تلك المطاوعة، ولا يجري في عنان مرادك ذلك الجري، ظهر لك نوع من الفرق والفصل بينهما غير ما عرفت، وانفتح منه باب إلى دقائق وحقائق، وذلك"جعل الفرع أصلا والأصل فرعا، وهو إذا استقريت التشبيهات الصريحة وجدته

[467] المصدر نفسه، ص 236، وعلي الجندي : " فن التشبيه "، ج2 / ص 11.
[468] عبد العاطي غريب علام : " دراسات في البلاغة العربية "، ص 136.
[469] عبد العظيم المطعني: " التشبيه و التمثيل "، ص 39-40.

يكثر فيها. وذلك نحو أنهم يشبهون الشيء في حال، ثم يعطفون على الثاني فيشبهونه بالأول، فترى الشيء مشبها مرة، ومشبها به أخرى"[470].

فالتشبيه الظاهر يكثر فيه قلب طرفيه، وجعل الأصل فرعا والفرع أصلا، فهم يشبهون النجوم بالمصابيح، ثم يقلبون فيشبهون المصابيح بالنجوم، ويشبهون الخد بالورد، والورد بالخد، والعيون بالنرجس، والنرجس بالعيون، والروض المنور بالوشي المنمنم، والوشي في الحلل بأنوار الرياض، والوجه بغرة الصباح، وغرة الصباح بالوجه...[471]

أما التمثيل فلا يتأتي فيه القلب إلا إذا كان مبنيا على ضرب من التأول والتخيل...[472]، وذلك "لأنه لما كان التمثيل يكثر فيه تشبيه المعقول بالمحسوس، وانتزاع الوجه الأول من الثاني، فلو عكس هذا كان فيه مخالفة للعقل، لأن اتصاف المعقول بوصف المحسوس إنما جاء من طريق تشبيهه به، فلو عكس لزم انتزاع وصف المحسوس من المعقول، وهو تناقض، ولأن المحسوس أظهر وأقوى من المعقول، فيكون الواجب قياس المعقول عليه، و لا يصح العكس "[473].

قال عبد القاهر:"..وإذا كان الأمر كذلك، علمت أن طريقة العكس لا تجيء في "التمثيل" على حدها في التشبيه الصريح، وأنها إذا سلكت فيه كان مبنيا على ضرب من التأول والتخيل، يخرج عن الظاهر خروجا ظاهرا، ويبعد عنه بعدا شديدا "[474].

وقد أفاض عبد القاهر في عرض شواهد التشبيه الظاهر التي كثر فيها القلب وساغ، فوقع الشيء الواحد فيها مشبها في حال، و مشبها به في حال أخرى....[475]

وكذلك أفاض في عرض شواهد التمثيل التي جاز فيها العكس على سبيل التخييل، والتخييل في التمثيل –كما ذكر الدكتور غريب علام- يكون من وجهين:

---

[470] عبد القاهر الجرجاني: " أسرار البلاغة "، ص 204.

[471] عبد الفتاح فيود: "دراسات بلاغية " ص 186.

[472] المرجع نفسه، ص 190.

[473] عبد العاطي غريب علام: " البلاغة العربية بين الناقدين الخالدين "، ص 190.

[474] عبد القاهر الجرجاني: " أسرار البلاغة "، ص 226.

[475] عبد الفتاح فيود: "دراسات بلاغية " ص 186، وعبد القاهر الجرجاني: " أسرار البلاغة "، ص 204 وما بعدها.

الأول: إيهام أن المعقول موصوف حقيقة بوصف المحسوس

والثاني : إيهام أن المعقول أعرف منه بوصفه...[476]

ومن شواهد التمثيل التي جاء فيها الفرع مردودا إلى موضع الأصل والعكس...قول القاضي التوخي: [477]

وَكَأَنَّ النُّجومَ بَيْنَ دُجاهُ سُنَنٌ لاحَ بَيْنَهُنَّ ابْتِدَاعُ

فالأصل أن تشبه السنن والبدع التي هي أمور معقولة، بالنجوم والدجى التي هي محسوسة، ووجه الشبه عقلي، آت من طريق "التأول" وإرادة مقتضى وصف المشبه به، وهو أن كلا من السنن والنجوم سبب الاهتداء والنجاة، وكلا من البدع و الدجى سبب الضلال والهلاك...ولكن الشاعر عكس على طريق التخييل، فجعل أولا: أن السنن موصوفة بالبياض حقيقة، بناء على أنه شاع وصفها بالبياض على سبيل الاستعارة المبنية على تشبيهها بما هو أبيض، كما في قوله صلى الله عليه وسلم: "أتيتكم بالحنيفية البيضاء "، وأن البدع موصوفة بالسواد، لما شاع من وصف البدعة والكفر بالسواد، بناء على تشبيهها بما هو أسود، ثم تخيل ثانيا بناء على ذلك أن السنن والبدع أعرف بالبياض والسواد من النجوم و الدجى، فصح له بناء على هذه الدعوى أن يعكس...[478]

وواضح أن البيت يدخل في تشبيه المحسوس بالمعقول، وأورد عبد القاهر من هذا الضرب أمثلة مختلفة كتشبيه الليل الموحش بالصدود، وتشبيه النار في الفحم بالإنصاف يتراءى في خلال الظلم، ومثل "هواء أرق من شكوى المحبين " و"أرض واسعة كأخلاق الكريم "...[479]

وبعد، فهذه هي جملة الفروق التي أثبتها عبد القاهر بين التمثيل والتشبيه... وهي تدل على ذكاء حاد، وقريحة فياضة، وعلم راسخ، وبصر بأساليب العرب وسننهم في كلامهم، مع ذوق سليم وحسن فهم.

---

[476] عبد العاطي غريب علام: " البلاغة العربية بين الناقدين الخالدين "، ص 190.

[477] أبو منصور الثعالبي: " يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر " / تحقيق: مفيد محمد قميحة/ دار الكتب العلمية / بيروت / ط1: 1983 / ج2 / ص 395.

[478] عبد العاطي غريب علام : " البلاغة العربية بين الناقدين الخالدين "، ص 191، وعبد القاهر الجرجاني: " أسرار البلاغة "، ص 226-227. وعلي الجندي : " فن التشبيه "، ج 1 / ص 344.

[479] شوقي ضيف : " البلاغة تطور و تاريخ "، ص 205، وعبد القاهر الجرجاني : " أسرار البلاغة "، ص 227 وما بعدها.

***الفروق بين التمثيل والاستعارة:**

وكما فرق عبد القاهر بين التمثيل والتشبيه...فقد وضع بين الاستعارة والتمثيل فروقا دقيقة، تستنتج من حديثه عن الفرق بين الفنين... وهي تتلخص فيما يلي:

-الفرق الأول: من الفروق التي أشار إليها – ويمكن استنتاجه من خلال الأساس الذي يقوم عليه كلا الفنين البيانين...أن الأساس في الاستعارة النقل من الأصل المعروف، أوالمعنى الذي دل عليه باللفظ الوضعي إلى شيء آخر لم يوضع له ذلك اللفظ، ولم يعرف عند أصحاب اللغة وواضعيها- أما الأساس في التمثيل فيعتمد – في التمثيل المركب- على انتزاع الشبه من جملة من الكلام أو ما في حكم الجملة من قبل العقل بضرب من التأول... ومن هنا يتضح الفرق بين الاستعارة و التمثيل، إذ الاستعارة تكون في اللفظ، و التمثيل يكون في الجملة أو أكثر أو شبه الجملة[480].

-الفرق الثاني: كما يقول عبد القاهر أنه : " إذا كان الشبه بين المستعار منه والمستعار له من المحسوس والغرائز والطباع وما يجري مجراها من الأوصاف المعروفة، كان حقها أن يقال إنها تتضمن التشبيه، ولا يقال إن فيها تمثيلا وضرب مثل، وإذا كان الشبه عقليا جاز إطلاق التمثيل فيها..."[481]

-الفرق الثالث: أن الاستعارة لا تفيد الشبه وحده، بل تزيد عليه المبالغة والادعاء في إثبات المعنى، يتم ذلك أيضا في أقل العبارات وأكثرها اختصارا، وليس كذلك التمثيل الذي هو نوع من أنواع التشبيه. [482]

-الفرق الرابع: أن الشبه في الاستعارة يكون موجودا في الشيء على الانفراد، من غير أن تكون نتيجة بينه وبين شيء آخر، و ذلك كاستعارة "الظلمة " للجهل والكفر والضلال، والنور للعلم والهداية و الإيمان... أما التمثيل فلا يتأتى الشبه فيه على هذا النحو، بل يكون مركبا من حاله مع غيره، فمثال ما يكون الشبه فيه مع غيره قول القائل: " أخذ القوس باريها "، فلا يستقيم أن يكون القوس استعارة

[480] ابن عبد الله شعيب : " علم البيان "، ص 135. وعبد القاهر الجرجاني : " أسرار البلاغة "، ص 238، و240.
[481] ابن عبد الله شعيب: " علم البيان "، ص 135. و عبد القاهر الجرجاني: " أسرار البلاغة "، ص 240.
[482] ابن عبد الله شعيب: " علم البيان "، ص 137. وشوقي ضيف: "البلاغة تطور و تاريخ "، ص 205. وعبد القاهر الجرجاني: "أسرار البلاغة "، ص 239-242.

للخلافة، والباري استعارة عن مستحقها، فليس ثمّت شبه بين القوس والخلافة، أو بين الباري والمستحق، وإنما الشبه مؤلف من حال الخلافة مع القائم بها، ومن حال القوس مع باريها، وهو يتمثل في أن كل واحد منها أعرف بالشيء وأحق به، لأنه أهدى إلى حسن استعماله والإفادة منه وبه.[483]

الفرق الخامس: أن الاستعارة لا تدخل تشبيه التمثيل الذي ينتزع من عدة أمور [484]...وفي ذلك يقول عبد القاهر: "...فأما إذا كان من الضرب الثاني الذي لا سبيل إلى معرفة المقصود من الشبه فيه إلا بعد ذكر الجمل التي يعقد بها التمثيل، فإن الاستعارة لا تدخله، لأن وجه الشبه إذا كان غامضا، لم يجزأن تقتسر الاسم وتغصب عليه موضعه، وتنقله إلى غير ما هو أهله من غير أن يكون معك شاهد ينبئ عن الشبه..."[485]

الفرق السادس: أن يكون الشبه في الاستعارة – بين المستعار منه والمستعار له " مما يقرب مأخذه ويسهل متناوله، ويكون في الحال دليل عليه، وفي العرف شاهد له، حتى يمكن المخاطب إذا أطلقت له الاسم أن يعرف الغرض ويعلم ما أردت" [486]. والسبب في ذلك أنه لابد من الوضوح وظهور الغرض من الاستعمال، فحين تطلق "الشمس " فإن هذا اللفظ يدل على أن المراد منه هو الحسن والنور؛ لأنهما من أخص الأمور التي تتعلق بالشمس، وأن العرف قد جرى بأن يشبه من أجلها به، وتعورف كون النور والحسن أصلا فيها يقاس عليه... أما الشبه في التمثيل فيحتاج إلى نظر في استنباطه، وإعمال تأمل للوقوف عليه، وهو لا يظهر إلا بعد أن تكتمل الجمل التي يكون لها دخل في تشكيله. وذلك نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ الآية، فلا يصح القول بأن الحياة ماء، أو إنما الحياة الدنيا ماء أنزلناه من السماء، فلا يستقيم القول ولا يكون له معنى إلا إذا قدرناه وقلنا: " إنما الحياة الدنيا مثل ماء ينزل من السماء...إلخ"، والسبب

[483] ابن عبد الله شعيب: " علم البيان "، ص 136-137. وعبد القاهر الجرجاني: " أسرار البلاغة "، ص 258.
[484] شوقي ضيف: " البلاغة تطور و تاريخ "، ص 205.
[485] عبد القاهر الجرجاني: " أسرار البلاغة "، ص 243-244.
[486] المصدر نفسه، ص 243.

في ذلك عدم تصور شبه بين الدنيا والماء يصح قصده. فلابد إذن من إعمال ذهن واكتمال الجمل حتى يتأتى الشبه على النحو الذي تتم به الغاية[487].

♦ مواقع التمثيل وتأثيره في المعاني والنفوس:

بعد أن بين عبد القاهر حقيقة التشبيه والتمثيل، وجلّى الفروق الفاصلة بينهما... انتقل إلى الحديث عن مواقع التمثيل وتأثيره في النفوس، وأثره في أداء المعنى، وأسباب ذلك التأثير...وقد توسع في بيان ذلك وفي عرض الأمثلة والشواهد، محللا لها تحليلا أدبيا رائعا، يدل على ملكة في البيان راسخة، وبصر بأساليب الكلام العربي، وذوق أدبي رفيع...

***مواقع التمثيل وتأثيره:**

ذكر عبد القاهر أن التمثيل يقع في الكلام على وجهين: [488]

أ-أولهما: أن يجيء في أعقاب المعاني، وذلك بأن يذكر المشبه به الذي به تمام التمثيل بعد كلام يتضح فيه أحوال المشبه...كما في قول ابن المعتز:

اصْبِرْ على مضَضِ الحَسو   دِ فإنّ صَبرَكَ قاتلُهْ

فالنّارُ تأْكـــــلُ نفسَهَا   إنْ لم تَجِدْ ما تأْكُلُهْ

حيث مثّلت حال الحسود يصبر على غيظه فيموت كمدا، بحال النار تخمد إن لم تمد بالوقود اللازم لدوام اشتعالها، وقد ذكر المشبه به بعد كلام بين حال المشبه...

ب-ثانيهما:أن تبرز المعاني ابتداء في علو ثوب التمثيل،وتنقل من صورتها الأصلية إلى صورته، وذلك حيث يجيء التمثيل على حد الاستعارة، فلا تذكر في الكلام حال المشبه،كما في قولهم يمثلون حال

[487] ابن عبد الله شعيب: " علم البيان "، ص 136.

[488] عبد الفتاح فيود: "دراسات بلاغية "، ص 199، وعبد العاطي غريب علام: " البلاغة العربية بين الناقدين الخالدين "، ص 169 و ما بعدها.

المتردد:"أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى"،وقولهم في بيان إسناد الأمر إلى من يحسنه:"أخذ القوس باريها" وقولهم في تصوير حال من يحتال للأمر حتى يصل منه إلى ما يريد:"ما زال يفتل منه في الذروة والغارب"

ومنه قول ابن لنكك يصف قوما لهم منظر حسن ومخبر قبيح: [489]

فِي شَجَرِ السَّرْوِ مِنْهُمُ مَثَلٌ لَـهُ رُوَاءٌ وَ مـا لَهُ ثَـ ـمَرُ...

هذا ويبدو أثر التمثيل واضحا جليا في إبراز تلك المعاني الممثلة، حيث يكتسي الكلام به أبهة وجمالا، ويرتفع قدره، وتتضاعف قواه في تحريك النفوس وإثارة الوجدان واستمالة القلوب... [490]

وفي ذلك يقول عبد القاهر:"واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه، أن"التمثيل"إذا جاء في أعقاب المعاني، أوبرزت هي باختصار في معرضه،ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته، كساها أبهة،وكسبها منقبة، ورفع من أقدارها، وشب من نارها،وضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها،واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابة وكلفا،وقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفا.فإن كان مدحا، كان أبهى وأفخم، وأنبل في النفوس وأعظم،وأهز للعطف،وأسرع للإلف،وأجلب للفرح،وأغلب على الممتدح...إلى آخره[491]

ومعنى"شب من نارها "، أي:حسنت به المعاني، وجادت، وشهرت، وتداولها أهل الأدب...وهذه قيمة في الأدب لا تجحد، وفضل فيه لا ينكر...ومعنى"كسبها منقبة" أي صارت به المعاني ذوات مناقب، أعني ذوات شرف، لها من الفضل ما تعلو به على نظرائها...وهذا من أثر التمثيل في المعنى نفسه، وهو القسم الأول من هذا النص...أما القسم الثاني: وهو قوله:"وضاعف قواها في تحريك النفوس لها"، فإنه مدخل آخر من مداخل تقويم النص الأدبي، والذي دخلت فيه صنعة التمثيل، وهو فعل هذه الصنعة لا في النص نفسه، ولكن في الذي يتلقى النص..فعبد القاهر يشرح كيف تتلقى نفوس المخاطبين - وهم ممن ارتفعوا عن طبقة العامة - صور هذا التمثيل، وقد أجاد في هذه العبارة، وأن هذه الصور تنفذ إلى أقاصي

---

[489] أبو منصور الثعالبي: " يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر "، ج2 / ص 410.

[490] عبد الفتاح فيود: "دراسات بلاغية " ص 200.

[491] عبد القاهر الجرجاني: " أسرار البلاغة "، ص 115-116.

الأفئدة أي تداخل سرائر القلوب، ويكون لها رنين في أقاصيها، وتحرك ما قر في قرار النفس، و تستثيره وتعطفه نحو المعنى... [492]

ثم إن عبد القاهر "بعد هذا الوصف العام لأثر التمثيل في النفس، رجع وقسم هذا الأثر على فنون الكلام والأغراض التي يروم الناس الإبانة عنها، فان كان مدحا كان أبهى وأفخم، وإن كان ذما كان أوجع وهكذا.." [493]

وانتقل بعد ذلك إلى بيان ما أجمل ذكره من الأثر النفسي للتمثيل، وبيانه لذلك الأثر النفسي ـــ كما ذكر الدكتور أبو موسى - يشبه عمليات التدريب على التذوق، وذلك بعرض الفكرة مجردة من صنعة التمثيل ومحاولة رصد ما يجده القارئ في نفسه، رصدا دقيقا، ثم عرضها وهي في صورة التمثيل، ثم رصد ما يجده في نفسه في هذه الحالة الثانية، ثم الموازنة بين الحالتين... [494]

ومن أمثلة ذلك قوله: "وإن أردت أن تعرف ذلك – وإن كان تقل الحاجة فيه إلى التعريف، ويستغنى في الوقوف عليه عن التوقيف – فانظر إلى نحو قول البحتري:

دَانٍ علَى أَيْدِي الْعُفاةِ وَشاسِعٌ   عَنْ كُلِّ نِدٍّ في النَّدَى وَ ضَرِيبِ
كَالْبَدْرِ أَفْرَطَ في الْعُلُوِّ وَ ضَوْءُهُ   لِلْعُصْبَةِ السَّـارِينَ جِـــدُّ قَرِيـبِ

وفكر في حالك وحال المعنى معك، وأنت في البيت الأول لم تنته إلى الثاني، ولم تتدبر نصرته إياه، وتمثيله له فيما يملي على الإنسان عيناه، ويؤدي إليه ناظراه، ثم قسهما على الحال وقد وقفت عليه، وتأملت طرفيه، فإنك تعلم بعد ما بين حالتيك، وشدة تفاوتهما في تمكن المعنى لديك، وتحببه إليك، ونبله في نفسك، وتوفيره لأنسك..." [495]

- وقال في موضع آخر: " وأنشد قول ابن لنكك: [496]

إِذاَ أَخُو الحُسْنِ أَضْحَى فِعْلُهُ سَمِجاً   رَأَيْتَ صـورَتَهُ مِنْ أَقْبَحِ الصُّوَرِ

[492] محمد أبو موسى: " مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني "، ص 385-386.
[493] المرجع نفسه، ص 386.
[494] المرجع نفسه، ص 387.
[495] عبد القاهر الجرجاني: " أسرار البلاغة "، ص 116.
[496] أبو منصور الثعالبي: " يتيمة الدهر... "، ج2 / ص 419.

وتبين المعنى واعرف مقداره، ثم أنشد البيت بعده:

وَهَبْكَ كالشَّمْسِ في حُسْنٍ، أَلَمْ تَرَناَ نَفِرُّ مِنْهَا إِذا مالَتْ إِلى الضَّرَرِ ؟

وانظر كيف يزيد شرفه عندك ؟ "[497]

- وقال أيضا: " وكذلك فروّ في بيت المتنبي: [498]

وَمَنْ يَكُ ذَا فَمٍ مُرٍّ مَرِيضٍ يَجِدْ مُـ ـرًّا بِهِ الماءَ الزُّلالا

لوكان سلك بالمعنى الظاهر من العبارة كقولك: " إن الجاهل الفاسد الطبع يتصور المعنى بغير صورته، ويخيّل إليه في الصواب أنه خطأ، هل كنت تجد من الروعة، وهل كان يبلغ من وقم الجاهل ووقذه، وقمعه وردعه والتهجين له والكشف عن نقصه، ما بلغ التمثيـ ـل في البيت، وينتهي إلى حيث انتهى؟"[499]...إلى غير ذلك من الأمثلة.

***أسباب تأثير التمثيل:**

وبعد أن بين عبد القاهر أثر التمثيل في المعاني والنفوس..."انتقل إلى الخطوة التي تليها، وهي أسباب هذا الأثر، وهذا انتقال متدرج، وموافق لفطرة البحث، وقد أدخل هذه الأسباب في الأحوال النفسية، وجعلها جزء من أسباب أنس النفوس، وجزء من المتألِّف لنافر المسرة، وأسس من هذا بابا جليلا من أهم وأرفع الدراسات البلاغية التي تخالط فيها الصنعة الأسلوبية الأحوال النفسية وتلتبس بها، وتتداخل معها، وكيف يكون التلاقي بين خطرات اللغة و خطرات القلوب..."[500]

وأسباب تأثير التمثيل عند عبد القاهر ترجع إلى ما يلي:

1- أنه ينقل النفوس من معنى خفي إلى جلي واضح: وذلك أنه ينقلها من معنى معقول إلى معنى محسوس، فالحسيات أقوى تأثيرا من العقليات، وأسبق حصولا في النفس...وكذا ينقل التمثيل النفس من معنى يدرك بعد التفكير والنظر، إلى معنى يدرك بالضرورة والبديهية، كاستلزام المسبب السبب، وكون

[497] عبد القاهر الجرجاني: " أسرار البلاغة "، ص 118.

[498] ناصيف اليازجي: " العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب "، ج1 / ص 330.

[499] عبد القاهر الجرجاني: " أسرار البلاغة "، ص 119.

[500] محمد أبو موسى: "مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني "، ص 389.

الجزء أصغر من الكل...وينقلها من معنى مكني عنه إلى معنى مصرح به، فتأنس النفس بذلك ويقر بها المعنى...[501]

قال عبد القاهر:"...فأول ذلك وأظهره، أن أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفي إلى جلي، وتأتيها بصريح بعد مكني، وأن تردها في الشيء تعلّمها إياه إلى شيء آخر هي بشأنه أعلم، وثقتها به في المعرفة أحكم، نحو أن تنقلها عن العقل إلى الإحساس، وعما يعلم بالفكر إلى ما يعلم بالاضطرار والطبع؛ لأن العلم المستفاد من طرق الحواس، أو المركوز فيها من جهة الطبع وعلى حد الضرورة، يفضل المستفاد من جهة النظر والفكر في القوة والاستحكام،وبلوغ الثقة فيه غاية التمام، كما قالوا:"ليس الخبر كالمعاينة"[502]

2- نفيه الشكوك والريب: وذلك حينما يقع التمثيل عقيب معنى "غريب بديع يمكن أن يخالف فيه، ويدعى امتناعه واستحالة وجوده..."[503]

وذلك نحو قول أبي الطيب:

فَإِنْ تَفُقِ الْأَنامِ وَ أَنتَ مِنْهُمْ   فَإِنَّ المِسْكَ بَعْضُ دَمِ الْغَزَالِ

وذلك لأن الشاعر أراد أن يصف الممدوح بأنه فاق بني جنسه ولم تعد بينه وبينهم مقاربة ولا مشابهة، بل صار هو كأنه أصل بنفسه وجنس برأسه، وهذا أمر غريب... ومن يدعي مثل هذه الدعوى فهو في حاجة إلى دليل يصحح به دعواه في جواز وجوده على الجملة أولا، لينتقل من هذا الجواز العام إلى الجواز الخاص، وهو ثبوت ما ادعاه للممدوح بعينه... ولما قال: " فإن المسك بعض دم الغزال " فقد احتج لدعواه وأبان أن لما ادعاه أصلا في الوجود، وبرأ نفسه من صفة الكذب وأزال الريب والشك عن سامعيه.[504]

3- بيان المقدار: أي بيان مقدار المشبه... وذلك إذا كان المشبه معروف الصفة قبل التشبيه معرفة إجمالية، وكان التشبيه يبين مقدار هذه الصفة...[505]

---

[501] عبد الفتاح فيود : "دراسات بلاغية " ص 206-207، و عبد العظيم المطعني : " التشبيه و التمثيل "، ص 69-70.

[502] عبد القاهر الجرجاني: " أسرار البلاغة "، ص 121.

[503] عبد الفتاح فيود:"دراسات بلاغية " ص 123، عبد العظيم المطعني: " التشبيه والتمثيل"، ص 71.

[504] عبد العظيم المطعني: " التشبيه و التمثيل "، ص 71.

[505] ابن عبد الله شعيب: " علم البيان "، ص 46.

ومثال ذلك قول مجنون ليلى:

فأَصبَحْتُ مِن ليلَى الغَداةَ كقابِضٍ   علَى الماءِ خانَتْهُ فُروجُ الأَصابِعِ

فالخيبة وبوار السعي وعدم حصول الشاعر على ما يرغبه من ليلى ويؤمل فيه، مما لاشك في أنه قد وقع، ومما لا يحتاج إلى دليل وبرهان، ولهذا فهو لا يبين إمكان حدوث خيبة الأمل وبوار السعي، بل يريد أن يبين مقدارهما، وأنه قد بلغ فيهما الغاية، حتى أنه لم يحظ من حبيبته بشيء قل أوكثر، شأنه شأن قابض على الماء خانته فروج الأصابع.[506]

4- الجمع بين طرفين متباعدين : وذلك حيث يصور الشيء في غير جنسه، ويلتقط له وجه شبه من غير محلته، فيكون له من الظرف واللطف ما لا يخفى، إذ يريك المتباعدين متقاربين، والمتنافرين متآلفين، وكلما كان التباعد بين الشيئين أشد، كان التشبيه ألطف و أغرب وأعجب وأطرب...[507]

وهذا السبب من أسباب تأثير التمثيل لا يختص بالتمثيل، بل يتأتى أيضا في التشبيه الصريح...[508] ولكن التمثيل – كما ذكر عبد القاهر - أخص من التشبيه في التأثير وتحريك قوى الاستحسان، وأسبق جار في هذا الرهان...[509]

قال عبد القاهر: "...وهل تشك في أنه يعمل عمل السحر في تأليف المتباينين حتى يختصر لك بعد ما بين المشرق والمغرب، ويجمع ما بين المشئم و المعرق. وهو يريك للمعاني الممثلة بالأوهام شبها في الأشخاص الماثلة، والأشباح القائمة، وينطق لك الأخرس، ويعطيك البيان من الأعجم، ويريك الحياة في الجماد، ويريك التئام عين الأضداد، فيأتيك بالحياة والموت مجموعين، والماء والنار مجتمعين، كما يقال في الممدوح هو حياة لأوليائه، موت لأعدائه..."[510]

ومن أمثلة ذلك قول البحتري السابق:

---

[506] ابن عبد الله شعيب: " علم البيان "، ص 46، و عبد القاهر الجرجاني: " أسرار البلاغة "، ص 124-125.

[507] عبد الفتاح فيود: "دراسات بلاغية " ص 211، و عبد القاهر الجرجاني: " أسرار البلاغة "، ص 130

[508] عبد الفتاح فيود: "دراسات بلاغية " ص 211.

[509] عبد القاهر الجرجاني: " أسرار البلاغة "، ص 131.

[510] عبد القاهر الجرجاني: " أسرار البلاغة "، ص 132.

دانٍ علَى أَيْدِي العُفاةِ وَشاسِعٌ...... إلى آخره

5- توليد معان كثيرة وتعددها من مصدر واحد: [511] وفي ذلك يقول عبد القاهر: " وإنه ليأتيك من الشيء الواحد بأشباه عدة، ويشتق من الأصل الواحد أغصانا ، وفي كل غصن ثمر على حدة، نحو أن "الزّنَد " بإيرائه يعطيك شبه الجواد، والذكي الفطن، وشبه النُّجْح في الأمور والظفر بالمراد، وبإصلاده شبه البخيل الذي لا يعطيك شيئا، والبليد الذي لا يكون له خاطر ينتج فائدة ويخرج معنى، وشبه من يخيب سعيه، ونحو ذلك..."[512]

ومن ذلك أنه "يعطيك شبه الإنسان في نشئه ونمائه إلى أن يبلغ حد التمام، ثم تراجعه إذا انقضت مدة الشباب، كما قال:

المَرْءُ مِثْلُ هِلالٍ حِينَ تُبْصِرُهُ   يَبْدو ضَئِيلا ضَعيفاً ثُمَّ يَتَّسِقُ

يَزْدادُ حَتىَّ إِذَا ما تَمَّ أَعْقَبَهُ   كَرُّ الجَدِيدَيْنِ نَقْصاً ثُمَّ يَنْمَحِقُ..."[513]

6- حاجة التمثيل في الغالب إلى إعمال الفكر وتقليب النظر وكثرة التأمل... حتى يتوصل إلى المعنى المراد، وهذا الاحتياج مرده إلى خفاء وجه الشبه وغموضه... [514]

فالمعنى–كما يقول عبد القاهر- إذا أتاك ممثلا، فهو في الأكثر ينجلي لك بعد أن يحوجك إلى طلبه بالفكرة وتحريك الخاطر له والهمة في طلبه. وما كان منه ألطف، كان [515] امتناعه عليك أكثر، وإباؤه أظهر، واحتياجه أشد. ومن المركوز في الطبع أن الشيء إذا نيل بعد الطلب له أو الاشتياق إليه، ومعاناة الحنين نحوه، كان نيله أحلى، وبالمزية أولى، فكان موق عه من النفس أجل وألط ف، وكانت به أضن وأشغف...[516]

[511] عبد العظيم المطعني: " التشبيه و التمثيل "، ص 81.

[512] عبد القاهر الجرجاني: " أسرار البلاغة "، ص 136.

[513] المصدر نفسه، ص 137.

[514] عبد الفتاح فيود: "دراسات بلاغية " ص 217.

[515] العبارة في الطبعة المعتمدة من كتاب "الأسرار ": ". . كانت امتناعه عليك أكثر؟ "، ولعله خطأ في الطباعة.

[516] عبد القاهر الجرجاني: " أسرار البلاغة "، ص 139.

وينبغي هنا التنبيه إلى أن عبد القاهر لم يقصد بالدقة والخفاء والغموض في التمثيل، ما يصل إلى حد التعمية والإلغاز...وإنما أراد ستر المعنى بغشاء رقيق يزول مع إعمال الفكر وتقليب النظر... - وقد صرح هو بهذا في نهاية حديثه عن تأثير التمثيل وأسبابه... [517]

♦تأثّر عبد القاهر وتأثيره في بحث التمثيل:

يبقى بعد هذا البيان لآراء عبد القاهر الجرجاني في "تشبيه التمثيل "...أن نتحدث – ولو بإيجاز- عن مدى تأثّره- في دراسته لذلك الفن البديع- بمن سبقوه، ممن سبق عرض آرائهم... ومدى تأثيره فيمن جاءوا بعده...

*تأثر عبد القاهر بالسابقين:

إن الكلام في هذه المسألة، هو– في الحقيقة- فرع عن الكلام في أصل عام يندرج تحته مبحث "التمثيل "، ألا وهو مبحث "الصور البيانية "، ويدخل تحتها: التشبيه والتمثيل، والحقيقة والمجاز، والاستعارة، والكناية والتعريض.

وهذه الفنون البيانية كلها، قد عالجها البلاغيون قبل عبد القاهر، وهذه حقيقة تذكر ولا تنكر... ولكن عبد القاهر بحثها بحثا مختلفا عن بحث أولئك لها...

وقد أشار هو نفسه إلى هذه الحقيقة في نهاية حديثه عن التشبيه والتمثيل والاستعارة... وذلك في قوله: " واعلم أن هذه الأمور التي قصدت البحث عنها، أمور كأنها معروفة مجهولة، وذلك أنها معروفة على الجملة، لا ينكر قيامها في نفوس العارفين ذوق كلام، والمتمهّرين في فصل جيده من رديئه– ومجهولة من حيث لم يتفق فيها أوضاع تجري مجرى القوانين التي يرجع إليها، فتستخرج منها العلل في حسن ما استحسن وقبح ما استهجن، حتى تعلم علم اليقين غير الموهوم، وتضبط ضبط المزموم المخطوم. ولعل الملال إن عرض لك، أو النشاط إن فتر عنك، قلت: " ما الحاجة إلى كل هذه الإطالة؟ و إنما يكفي أن

[517] عبد القاهر الجرجاني: " أسرار البلاغة "، ص 139 وما بعدها. وعبد العظيم المطعني :" التشبيه والتمثيل"، ص 82. وعبد الفتاح فيود: "دراسات بلاغية " ص 218 وما بعدها.

يقال: الاستعارة مثل كذا، فتعد كلمات، وتنشد أبيات، وهكذا يكفينا المؤونة في التشبيه والتمثيل يسير من القول... "[518]

وعبد القاهر بذلك يضع في أيدينا فرق ما بينه وبين سابقيه في بحث الصور البيانية، فقد كان يكفيهم أن يسموها، ويفتحوا لها الأبواب يسردون أمثلتها دون تحليل ودون وضع قوانين فارقة ومقاييس يعرف بها جيد الكلام من رديئه، وحسنه من قبيحه... [519]

ويمكن القول إن ملامح علم البيان لم تتحدد ولم تتجسد في نظرية متكاملة إلا في كتابات عبد القاهر في كتابيه "الدلائل " و"الأسرار" وبخاصة هذا الأخير..." ولم يكن دوره في تحديد ملامح هذه النظرية مقصورا على جمع ما تبعثر من مباحثها عبر كتب السابقين والتأليف بينه، وإنما تجاوز ذلك إلى تعميق هذه النظرات العامة السريعة التي اتسمت بها معالجة معظم من تناولوا موضوعات علم البيان ومباحثه قبله، وأضاف إلى ما قالوه الكثير من الأبواب و الفصول..."[520]

وعبد القاهر يمتاز من سابقيه جميعا " بأنه بحث بحثا عميقا في أثر كل فن من تلك الفنون في العمل الأدبي، أي أنه فلسفها و بين عيوبها و محاسنها، وربطها ربطا وثيقا بالدراسات النفسية، فالجميل جميل لتأثيره في النفس، وإثارة المشاعر والذكريات، أو لإثارة الملكات والحواس بتحريكها حتى تفطن إلى الحسن المعنوي، وتصله بألوان الحسن المادي الذي تراه في الطبيعة في تناسقها، وفي تآلف كائناتها و أصواتها وألوانها وحركاتها... "[521]

وهذا الكلام ينطبق على بحث "التمثيل "، والذي يمكن اعتباره من أمتع المباحث التي تناولها عبد القاهر بالدراسة والتحليل العميقين...ويفترق عبد القاهر – في دراسته للتمثيل- عن سابقيه ومعاصريه، في عدة أمور، أهمها:

---

[518] عبد القاهر الجرجاني: " أسرار البلاغة "، ص 260.

[519] شوقي ضيف: " البلاغة تطور و تاريخ "، ص 206.

[520] علي عشري زايد: " البلاغة العربية... "، ص 114.

[521] بدوي طبانة: " البيان العربي... "، ص 149.

أ - أنه– كما ذكر الدكتور مطلوب- كان من أوائل الذين وضعوا حدا واضحا بين التشبيه والتمثيل، حينما قسم التشبيه إلى ضربين... [522]

ب - توسعه ودقته في وضع الفروق الفاصلة بين التمثيل والتشبيه من جهة، وبين التمثيل والاستعارة من جهة أخرى...

ت - كلامه الرائع عن مواقع التمثيل وأثره في المعاني والنفوس، وأسباب تأثيره... يضاف إلى ذلك توسعه في إيراد الشواهد من الكلام البليغ، وإتباعها بالتحليل الأدبي والنفسي، ودعوته القارئ إلى تذوق النصوص... إلى غير ذلك.

والحقيقة – كما ذكر الدكتور محمد جلال الذهبي- أن عبد القاهر قرأ تراث من سبقه- لاشك في ذلك- ثم اشتملت عليه نفسه فخرج شيئا آخر غير ما كان، لا يستطيع إنسان أن يقول: إنه هو، وإن كان هو أصله، فالشهد الذي نلذّ به ونهشّ له، أصله رحيق زهر، قد يكون من ألوان متعددة وأماكن متباينة لكنه صار شيئا غير ما كان... [523]

***تأثيره فيمن جاءوا بعده:**

إن تأثير عبد القاهر فيمن جاء بعده – ممن كتبوا في البلاغة- أمر لا يكاد يخفى على أحد ممن له إطلاع على كتب البلاغة، ولا ينكره إلا جاحد أو حاسد... وإذا كان يقال عن النحويين بعد سيبويه: إنهم عيال على كتابه في النحو... فكذلك كان رجال البلاغة بعد عبد القاهر عيالا على كتابيه الجليلين "دلائل الإعجاز " و"أسرار البلاغة "، والذين استوعبا معظم مباحث البلاغة العربية، مع ما تميزت به دراسة عبد القاهر لها من عمق ودقة ومنهاج واضح...

غير أن هذا التأثر العام بما كتبه عبد القاهر في البلاغة، لا يلزم منه أن الذين جاءوا من بعده قد تابعوه في كل آرائه، بل الحقيقة التي يقف عليها كل مطلع على ما كتبه عبد القاهر في البلاغة، وما كتبه غيره ممن تأثّروه، هي أنهم خالفوه في مسائل عدة...

[522] أحمد مطلوب: " معجم المصطلحات البلاغية و تطورها "، ص 333.

[523] محمد جلال الذهبي: " سمات البلاغة عند الشيخ عبد القاهر "، ص 3.

على أنه ينبغي أن يلاحظ هنا كذلك، أن بعض ما خالف فيه أولئك عبد القاهر... قد يكون منشؤه فهما معينا فهموه من مجموع كلامه في المسألة، أو عدم إدراكهم لمقاصد الشيخ من كلامه... ولعلّ هذا الأمر ينطبق على بحث "التمثيل"، ففي باب "التمثيل"كان عبد القاهر – كما سبق ذكره- من أوائل من وضعوا حدّا واضحا بين التشبيه والتمثيل، وقد اعتمد في التفريق بينهما على وجه الشبه المنتزع من الطرفين... وكذلك فعل معظم الذين جاءوا من بعده، وهذا في حد ذاته تأثر، كل ما في الأمر أنه اختلفت وجهة نظرهم في ذلك التفريق:

- فالسكاكي- كما سبق- لا يرى "التمثيل " إلا ما كان وجهه مركبا عقليا، ولعله قد نظر إلى ما ذهب إليه عبد القاهر من أن التمثيل المركب أجدر باسم "التمثيل" من غيره... يضاف إلى ذلك أن علما من أعلام البلاغة وهو فخر الدين الرازي- والذي ذكر في مقدمة كتابه "نهاية الإيجاز"، أن كتابه هذا إنما هو اختصار وإعادة ترتيب لكتابي عبد القاهر [524]- قد صرح بأن التشبيه الذي يخص باسم "التمثيل" هو ما كان منتزعا من اجتماع أمور يتقيد البعض بالبعض... [525]، والسكاكي – كما ذكر الدكتور الذهبي- في معظم آرائه البلاغية، ينقل عن الفخر الرازي... [526]

- والخطيب القزويني، ومعه جمهور البلاغيين-كما سبق أيضا-يرى أن التمثيل ما كان وجهه مركبا، سواء كان حسيا أو عقليا... فقد خالف عبد القاهر في أنه عد ما كان وجه الشبه فيه من المركبات الحسية تمثيلا لا تشبيها، ولعل السبب في ذلك أنه أدرك أن الوجه عندما يكون من تلك المركبات الحسية لا يخلو من خفاء، وإن كان لا يحتاج ذاك الخفاء في معظم صور المركبات الحسية إلى تأول وصرف عن الظاهر... [527]

---

[524] فخر الدين محمد بن الحسين الرازي : " نهاية الايجاز في دراسة الإعجاز " / تحقيق: سعد سليمان حمودة / دار المعرفة الجامعية / مصر / 2003 / ص 32.

[525] المصدر نفسه، ص 116.

[526] محمد جلال الذهبي: " سمات البلاغة عند الشيخ عبد القاهر "، ص 36.

[527] عبد الفتاح فيود: " دراسات بلاغية "، ص 155.

كما كان لعبد القاهر تأثيره في باب الشواهد وتحليلها، والحديث عن تأثير التمثيل... ولكنه تأثير ضعيف، إذ"لم يستطيعوا أن يحتفظوا له بالمستوى الذي وصل إليه عبد القاهر..." [528]، بل إن قصورهم عنه شديد.

•وفيما يلي ذكر أهم نتائج الفصل المستخلصة:

-أولا: يعد عبد القاهر الجرجاني من أوائل من وضعوا حدا واضحا بين التشبيه والتمثيل، وذلك بما أثبته من فروق عديدة بينهما، بل إنه فرق تفريقا دقيقا – أيضا- بين التمثيل والاستعارة... مما يدل على علم راسخ، وذكاء حاد، وقريحة فياضة، وبصر بأساليب العرب في كلامهما...

- ثانيا: مذهب عبد القاهر في "التمثيل"، أنه كل تشبيه كان وجه الشبه فيه عقليا غير غرزي – أي غير حقيقي- سواء كان مفردا أم مركبا، ومع ذلك فهو يفضل المركب العقلي على المفرد، ويرى أنه الأجدر باسم التمثيل"...وربما كان هذا هو الذي أغرى المتأخرين –كالسكاكي- باعتبار التركيب في التمثيل...

- ثالثا: تبين أن "التمثيل" عند عبد القاهر قد يأتي في صورة التشبيه وهو حقيقة لغوية... كما قد يأتي في صورة الاستعارة – وهي مجاز لغوي... والشواهد التي مثل بها، مع تصريحه بأن التمثيل قد يكون مجازا لمجيئك به على حد الاستعارة... خير شاهد على ذلك.

- رابعا: تميز عبد القاهر عن سابقيه ولاحقيه، بحديثه الرائع المسهب عن أثر التمثيل في المعاني والنفوس، وشرحه لأسباب التأثير... مع التوسع في إيراد الشواهد من الكلام البليغ، وتحليلها تحليلا أدبيا ونفسيا معمقا، ودعوته القارئ أو السامع إلى تذوق النصوص، وفي ذلك تدريب للمتلقي على حسن التذوق والنقد...

-خامسا: لاشك في أن عبد القاهر قرأ تراث من سبقوه، ومن ذلك ما كتبوه عن"التمثيل"...ولكنّ بينه وبينهم فرقاً كبيرا في طريقة عرض ذلك الفن البديع... بل إن الفرق في ذلك ظاهر –كذلك- بينه وبين لاحقيه، فلم يستطيعوا أن يحتفظوا له بالمستوى الذي وصل به إليه عبد القاهر، فضلا عن أن يضيفوا إليه جديدا...

[528] علي عشري زايد: " البلاغة العربية... "، ص 119.

وإن في ذلك لدليلا على عبقرية ذلك العلم... عبقريةٍ فذة تشهد لصاحبها بالتفوق، وتبوء المكان العلي من سماء البلاغة العربية...

الخاتمة

بعد هذا التّطواف في رحاب ذلك الفنّ البديع؛ فنّ "تشبيه التّمثيل"، والذي وقفنا من خلاله على بدايات نشأته وتخلّقه ، وتتبّعنا مراحل نموّه وتطوّره، وتجلّت لنا – فيما نظنّ ونزعم- حقيقته ، ووقفنا على جوانب من جهود عبد القاهر الجرجاني في رسم حدوده، ورفع قواعده...بعد هذا كله، آن الأوان للمطوّف أن يلقي العصا، ويبدي الْجَنَى، وجنى البحث نتائجه... وهذه – أيّها القارئ الكريم – أهمّها :

- أولا: تبيّن ممّا سبق عرضه من آراء علماء البلاغة السابقين في التّمثيل، أنّ مفهوم ذلك الفّن البلاغي – قبل عبد القاهر الجرجاني -كان عامًّا، يطلق على كثير من الصّور البيانية كالاستعارة والكناية والتّشبيه الاصطلاحي... وقد تبيّن ذلك جلياّ من خلال الشّواهد التي مثّلوا بها.

- **ثانيا:** تبيّن -أيضا- أنّ قدامة بن جعفر يكون أوّل من عدّ التّمثيل مخالفا للتشبيه، وأوّل من خصّه بتعريف، ومثّل له بشواهد...وقد تأثّره- في عمله- من جاءوا بعده تأثّراً شديداً، غير أنّ ذلك لم يمنع من أن تكون لهم بعض الملاحظات والزيادات و الاستدراكات التي أثرت البحث...ولكنّ ذلك كلّه لم يكن كافيا لبيان حقيقة "تشبيه التمثيل"، ورسم حدوده، وتحديد معالمه .

– ثالثا: هناك من البلاغيين من لم يرد عنده مصطلح "التمثيل"، ولكنه أشار إليه إشارة دقيقة، تحت مسمّى "المثل" الذي هو عنده من المجاز، كما رأينا عند الجاحظ... أوأشار إليه بأمثلته، وبيان حسنه، حتى سمّاه تشبيه البلاغة، كما سبق عند الرّمّاني...ولا شكّ في أنّ هذه الإشارات والملاحظات قد أفاد منها من جاءوا بعدهما.

- **رابعا:** خلصنا إلى أن معاني التمثيل في اللغة ترجع إلى المماثلة والتجسيم والتصوير. وعند التحقيق فإنّها ترجع إلى المماثلة ومناظرة الشيء للشيء...

- **خامسا:** الرأي الأمثل والأعدل في معنى "تشبيه التمثيل" اصطلاحا أنّه: " ما كان وجه الشبه فيه دقيقا لا يدركه ولا يفطن إليه إلا أصحاب الأذواق السليمة، الذين ارتفعوا عن طبقة العامة " - وهذا يتحقق في:

—ما كان وجه الشبه فيه مفردا عقليا غير غرزي.

—وما كان وجه الشبه فيه مركبا عقليا.

—وما كان وجه الشبه فيه مركبا حسيا.

وأمّا التشبيه غير التمثيلي فهو بخلافه، أي: ما كان وجه الشبه فيه واضحا بينا لا يحتاج إلى إعمال فكر وإلطاف روية- وهذا يتحقق في:

—ما كان وجه الشبه فيه مفردا حسيا

—وما كان وجه الشبه فيه عقليا (والشأن في مثل هذا الوجه أن يكون مفردا)

- **سادسا:** تبيّن أنّ "التمثيل" ينطوي على أسرار عظيمة تدلّ على فضيلته وعلوّ منزلته... وحسنُه في القرآن الكريم، والحديث النبويّ، وكلام العرب – ظاهر باهر... وما على المرء من حرج إذا قال عن ذلك الفنّ البديع : **إنّه من البيان "بِمَنْزِلَةِ الرَّبِيعِ مِنَ الزَّمَانِ".**

- **سابعا:** يعد عبد القاهر الجرجاني من أوائل من وضعوا حدا واضحا بين التشبيه والتمثيل، وذلك بما أثبته من فروق عديدة بينهما، بل إنه فرق تفريقا دقيقا – أيضا- بين التمثيل والاستعارة...وهذا مما يدل على أنّ صور البيان على اختلافها كانت قد تميّزت عنده، بخلاف من سبقوه.

- **ثامنا:** مذهب عبد القاهر في "التمثيل"، أنه كل تشبيه كان وجه الشبه فيه عقليا غير غرزي – أي غير حقيقي- سواء كان مفردا أم مركبا، ومع ذلك فهو يفضِّل المركب العقلي على المفرد، ويرى أنه الأجدر باسم التمثيل"....وربما كان هذا هو الذي أغرى المتأخرين –كالسكاكي- باعتبار التركيب في التمثيل...

- **تاسعا:** تبين أن "التمثيل" عند عبد القاهر قد يأتي في صورة التشبيه وهو حقيقة لغوية...كما قد يأتي في صورة الاستعارة – وهي مجاز لغوي...والشواهد التي مثّل بها، مع تصريحه بأن التمثيل قد يكون مجازا لمجيئك به على حد الاستعارة...خير شاهد على ذلك.

- **عاشرا:** تميز عبد القاهر عن سابقيه ولاحقيه، بحديثه الرائع المسهب عن أثر التمثيل في المعاني والنفوس، وشرحه لأسباب التأثير...مع التوسع في إيراد الشواهد من الكلام البليغ، وتحليلها تحليلا أدبيا

ونفسيا معمقا، ودعوته القارئ أو السامع إلى تذوّق النصوص، وفي ذلك تدريب للمتلقي على حسن التذوّق والنقد...

- **حادي عشر:** لاشك في أن عبد القاهر قرأ تراث من سبقوه، ومن ذلك ما كتبوه عن "التمثيل"... ولكنّ بينه وبينهم فرقاً كبيرا في طريقة عرض ذلك الفن البديع...بل إن الفرق في ذلك ظاهر –كذلك- بينه وبين لاحقيه، فلم يستطيعوا أن يحتفظوا له بالمستوى الذي وصل به إليه عبد القاهر، فضلا عن أن يضيفوا إليه جديدا...وإنّ في ذلك لدليلا على عبقرية ذلك العلم...عبقريةٍ فذّة تشهد لصاحبها بالتفوّق، وتبوّء المكان العلي من سماء البلاغة العربية...

والحقيقة أنّ فنّ "تشبيه التمثيل" يستحقّ من الجهد في سبيل بيان حقيقته، وإبراز شرفه وفضيلته، ومكانته من البلاغة..أضعاف ما بُذِل. والنيّة معقودة على تحقيق هذا الأمر فيما يُستقبل، ومن الله نستمدّ المعونة والتوفيق...إنّه أكرم مسؤول- وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

المصادر و المراجع

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم ، برواية حفص عن عاصم.

✍ ابن الأثير، ضياء الدين أبو الفتح نصر الله بن أبي الكرم (ت:637 هـ):

1) -"المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر"،تحقيق:محي الدين عبد الحميد،المكتبة العصرية،بيروت، 1999

2) -"المثل السائر"،تحقيق:أحمد الحوفي وبدوي طبانة،دار نهضة مصر،القاهرة،ط2،بدون تاريخ

✍ ابن الرومي :

3) -"الديوان" ، شرح: أحمد حسن بسج ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 3: 2002

✍ ابن القيم، محمد بن أبي بكر الدمشقي(ت:751هـ):

4) -"بدائع التفسير"،تحقيق:يسري السيد محمد،دار ابن الجوزي،م.ع.السعودية،ط1: 1427هـ

5) -"الأمثال في القرآن الكريم"، تحقيق: سعيد محمد نمر الخطيب، دار المعرفة، بيروت، 1981

✍ ابن المعتز، عبد الله(ت:296هـ):

6) -"البديع" ،تحقيق: عبد المنعم خفاجي ،دار الجيل ،بيروت ،ط1: 1990

7) - الديوان"، طبعة دار صادر، بيروت

✍ ابن تيمية ، أحمد بن عبد الحليم(ت: 728هـ):

8) -"الإيمان" ، تحقيق صدقي جميل عطار، دار الفكر،بيروت ،ط1: 1419هـ

✍ ابن جني، أبو الفتح عثمان(ت:392 هـ):

9) -"الخصائص"،تحقيق: محمد علي النجار،دار الكتب المصرية،المكتبة العلمية،مصر،ط2: 1952

✍ ابن رشيق، أبو علي الحسن (ت: 456 أو 463هـ):

10) -"العمدة" ،تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد ،طبعة دار الجيل، بيروت، بدون تاريخ

✍ ابن سنان الخفّاجي، أبو محمد عبد الله بن محمد(ت:466هـ):

11) -"سر الفصاحة"، تحقيق: علي فودة ، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2: 1994

✍ ابن عاشور، محمد الطاهر:

12) -"التحرير والتنوير"، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984

✍ ابن فارس ، أبو الحسين أحمد بن زكريّا(ت 395هـ):

13) -"مقاييس اللغة"،تحقيق: عبد السلام هارون،دار الفكر،1979

✍ ابن قتيبة ، عبد الله بن مسلم (ت:276هـ):

14) -"تأويل مشكل القرآن"، تحقيق: السيد أحمد صقر ، المكتبة العلمية، بدون تاريخ.

✍ ابن كثير ، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل الدمشقي(ت:774هـ):

15) -"تفسير القرآن العظيم"،دار الثقافة، الجزائر، ط1: 1990

16) -"البدايةوالنهاية"،تحقيق:جودةمحمدجودة،ومحمدحسني الشعراوي،دارابن الهيثم،القاهرة،ط1: 2006

✍ ابن مقبل

17) "الديوان"، تحقيق: عزة حسن،دار الشرق العربي،بيروت، 1995

✍ ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين الأفريقي المصري (ت:711 هـ):

18) -"لسان العرب"،دار صادر، بيروت ،بدون تاريخ

✍ الأخطل، غيّاث بن غوث التغلبي:

19) -"الديوان"،شرح مهدي محمد ناصر الدين ،دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط2: 1994

✍ الأصمعي، عبد الملك بن قريب(ت: 216هـ):

20) -"الأصمعيات"،تحقيق وشرح : سعدي ضناوي،دار الكتب العلمية،بيروت،ط1: 2004

✍ الأعشى، ميمون بن قيس:

21) -"الديوان، دار بيروت، بيروت، 1980

✍ الأعلم الشنتمري.

22) أشعار الشعراء الستة الجاهليين،دار الفكر،بيروت،بدون تاريخ

✍ الألوسي ، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود البغدادي(ت:1270هـ):

23) -"روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني"، دار احياء التراث العربي،بيروت

✍ الأمين، محمد العلوي الهرري:

24) -"حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن"،دار طوق النجاة، بيروت،ط1: 2001

✍ الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب (ت: 403هـ):

25) -"إعجاز القرآن"،تحقيق: عماد الدين أحمد حيدر،مؤسسة الكتب الثقافية،بيروت،ط4، بدون تاريخ

✍ البحتري، أبو عبادة:

26) -"الديوان"، تحقيق و شرح: حسن كامل الصيرفي،دار المعارف،مصر، ط3: 1963

27) -"الديوان" ، دار صادر، دار بيروت، بيروت، 1962

✍ البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة (ت:256هـ):

28) -"الجامع الصحيح"، دار الشهاب، الجزائر، 1990

✍ التبريزي ، أبو زكريا يحي بن علي الخطيب(ت:512 هـ):

29) -"شرح ديوان عنترة"،تحقيق: مجيد طراد،دار الكتاب العربي، بيروت، 2004

30) -"شرح ديوان أبي تمّام"،تحقيق محمد عبده عزّام ،دار المعارف، القاهرةط4

✍ الثعالبي، أبو منصور عبد الملك النيسابوري(ت:429 هـ):

31) -" يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر" ،تحقيق: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1: 1983

✍ الجاحظ، عمرو بن بحر (ت255هـ):

32) -"الحيوان"،تحقيق:عبد السّلام محمّد هارون،شركة مصطفى البابي الحلبي وأولاده،ط2: 1966

✍ الجرجاني ، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمان(ت:471هـ):

33) -"دلائل الاعجاز"،تحقيق: محمود محمد شاكر،دار المدني،جدة ،مطبعة المدني،القاهرة، ط3 :1992

34) -"أسرار البلاغة"،تحقيق:محمود شاكر،دار المدني-جدّة،مطبعة المدني– مصر،ط2: 1989

✍ الجندي ، علي :

35) -" فن التشبيه" ،مكتبة الأنجلو المصرية ،ط2: 1966

✍ الجوهري، إسماعيل بن حمّاد (ت 393هـ):

36) -"الصحاح"،تحقيق:أحمدعبد الغفور عطار،دار العلم للملايين،بيروت،ط4: 1990

✍ الحكيم الترمذي ، أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسن بن بشر(ت:320هـ):

37) -"الأمثال من الكتاب والسنة"،تعليق:سليم مصطفى البدري،دار الكتب العلمية،بيروت،ط1: 2003

✍ الحموي، ياقوت:

38) -"معجم الأدباء" ،دار الفكر، ط3: 1980

✍ الخفاجي ،محمد عبد المنعم وآخرون:

39) -"الأسلوبية والبيان العربي "، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ،ط1: 1992

✍ الذهبي، محمد جلال:

40) -"سمات البلاغة عند الشيخ عبد القاهر"،مطبعة الأمانة، مصر،ط2، بدون تاريخ

✍ الرازي ، أبو بكر بن عبد القادر(ت: هـ

41) -" مختار الصحاح"، دار الحديث، القاهرة، 2004

✍ الرازي ، فخر الدين محمد بن عمر(ت:606 هـ):

42) -"نهاية الايجاز في دراسة الإعجاز"،تحقيق: سعد سليمان حمودة،دار المعرفة الجامعية،مصر، 2003

43) -"التفسير الكبير" أو "مفاتيح الغيب"، دار الفكر، بيروت، ط1: 1981

✍ الرامهرمزي، القاضي أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خلاّد (ت:360هـ):

44) -"أمثال الحديث"،تحقيق:عبد العلي عبد الحميد الأعظمي،الدار السلفية،بومباي، الهند، ط1، 1983

✍ الرمّاني، علي بن عيسى(ت386هـ):

45) -"النكت في إعجاز القرآن"، ضمن: "ثلاث رسائل في إعجاز القرآن.."، تحقيق: محمّد خلف الله، ومحمّد زغلول سلام ، دار المعارف، مصر، بدون تاريخ

✍ الزمخشري ، جار الله(ت538هـ):

46) -" الكشاف"،مكتبة العبيكان ، الرياض ، ط1: 1998 ،تحقيق عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد عوض

47) -"أساس البلاغة"،تحقيق:محمد باسل عيون السود،دار الكتب العلمية،بيروت،ط1: 1998

✍ الزوزني، أبوعبد الله الحسين:

48) -"شرح المعلّقات السبع"،مكتبة المعارف، بيروت، ط5: 1985

✍ السجلماسي، أبو محمد القاسم(المتوفّى بعد سنة 700هـ على الرّاجح):

49) -" المنزع البديع"،تحقيق: علال الغازي، مكتبة المعارف، الرّباط، المغرب، ط1: 1980

✍ السكاكي، أبو يعقوب(ت: 626هـ):

50) -" مفتاح العلوم"،تحقيق: نعيم زرزور،دار الكتب العلمية، بيروت، ط2: 1987

✍ السيد ، عز الدين علي:

51) -"الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية"، دار اقرأ، بيروت، ط2: 1986

✍ السيد، شفيع:

52) -"البحث البلاغي عند العرب"،دار الفكر العربي،مدينة نصر،مصر،ط2: 1996

✍ السيوطي ، أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر(ت:911هـ):

53) -"الإتقان في علوم القرآن"،تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت، ط1: 2008

✍ الشنقيطي، أحمد بن الأمين:

54) -"شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها"، تحقيق:عبد الرحمن المصطاوي،دار المعرفة،بيروت،ط3: 2007

✍ الصغاني، الحسن بن محمد بن الحسن (ت 650هـ):

55) -"التكملة والذيل والصلة لكتاب تاج اللغة وصحاح العربية" ،تحقيق: إبراهيم إسماعيل الأبياري ،دار الكتب،القاهرة،1970

✍ العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر(ت:852هـ):

56) -"فتح الباري بشرح صحيح البخاري" ، اعتنى به: أبو قتيبة نظر محمد الفاريابي ،دار طيبة ، الرياض ، م.ع السعودية،ط1: 2005

✍ العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل(ت: 395هـ):

57) -"الصناعتين" ،تحقيق : مفيد قميحة ، دار الكتب العلمية، بيروت،ط2: 1989

✍ العلوي، يحي بن حمزة (ت:749هـ):

58) -"الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز" ،تحقيق:عبد الحميد هنداوي ،المكتبة العصرية ،بيروت، ط1: 2002

✍ الفرزدق، همام بن غالب:

59) -"الديوان"،دار الكتاب اللبناني،مكتبة المدرسة، بيروت،ط1: 1983، شرح: إيليا الحاوي

✍ الفيروزابادي ، مجد الدين(ت817هـ):

60) -"القاموس المحيط"،الهيئة المصرية العامة للكتاب،مصر،1980

✍ الفيومي ، أحمد بن محمد بن علي المقري(ت 770هـ):

61) -"المصباح المنير"،مكتبة لبنان،بيروت،1987

✍ القزويني، جلال الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمان الخطيب (ت 739هـ):

62) -"الإيضاح في علوم البلاغة" ،دار الكتب العلمية ،بيروت،بدون تاريخ

63) -"الإيضاح في علوم البلاغة"،وضع حواشيه: إبراهيم شمس الدّين، دار الكتب العلمية، بيروت،ط1: 2003

64) -"التّلخيص "، شرح عبد الرّحمن البرقوقي ، دار الفكر العربي، ط2: 1932

✍ المبرد ، أبو العباس محمد بن يزيد (ت:285 هـ):

65) -" الكامل"، تحقيق محمد أحمد الدالي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط3: 1997

✍ المرزوقي ، أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن(ت: 421هـ):

66) -"شرح ديوان الحماسة"، تحقيق: أحمد أمين وعبد السّلام هارون،دار الجيل،بيروت،ط1: 1991

✍ المصري، ابن أبي الإصبع(ت: 654هـ):

67) -"تحرير التّحبير"،تحقيق: حنفي محمد شرف، نشر لجنة إحياء التراث الإسلامي،المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، الجمهورية العربية المتحدة

✍ المطعني، عبد العظيم:

68) -"من قضايا البلاغة و النقد" ،مكتبة وهبة، القاهرة، ط1: 2002

69) -"التشبيه والتمثيل"،مكتبة وهبة،القاهرة،ط1، 2002

✍ الهاشمي ، السيد أحمد:

70) -"جواهر البلاغة"، دار الكتب العلمية، بيروت، ط4، 2009

71) -"جواهر البلاغة"، دار الفكر، بيروت، 2003

✍ اليازجي، ناصيف :

72) -"العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب"،دار الجيل بيروت،دار نظير عبود،بدون تاريخ

✍ أبو الشيخ الأصبهاني، أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيّان(ت:369هـ):

73) -"الأمثال في الحديث النبوي"،تحقيق: عبد العلي عبد الحميد الأعظمي،الدار السلفية، بومباي، الهند، ط1: 1982

✍ أبو العتاهية:

74) -"الديوان"، دار بيروت، بيروت، 1986

✍ أبو حيان، محمد بن يوسف الأندلسي(ت:745هـ):

75) -"البحر المحيط"، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض وآخرون ،دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1: 1993

✍ أبو عبيدة، معمر بن المثنى (ت: 211هـ)

76) -"مجاز القرآن"،تحقيق: أحمد فريد المزيدي،دار الكتب العلمية،بيروت ،ط1: 2006

✍ أبو فراس الحمداني:

77) -"الديوان"، دار بيروت، بيروت، 1986

✍ أبو موسى، محمد:

78) -"البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري "،دار الفكر العربي،القاهرة، بدون تاريخ

79) -"التصوير البياني"،مكتبة وهبة،القاهرة،ط3: 1993

80) -" مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني"، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1 1998

✍ بودرع ، عبد الرحمن:

81) -"الإيجاز وبلاغة الإشارة في البيان النبوي"،مطبعة الخليج العربي،تطوان،المغرب،ط1: 2009

✍ ذو الرمة:

82) -"الديوان"،شرح: أحمد حسن بسج ،دار الكتب العلمية ،بيروت، لبنان، ط1: 1995

✍ زايد ، علي عشري :

83) -" البلاغة العربية..."،مكتبة الآداب ،القاهرة ،ط4 : 2004

✍ زنجير ، محمد رفعت أحمد:

84) -"التشبيه في مختارات البارودي – دراسة تحليلية" (رسالة دكتوراه)، كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1415هـ-1995م

✍ زهير بن أبي سلمى:

85) -" الديوان" ،المكتبة الثقافية، بيروت، بدون تاريخ

✍ شعيب، ابن عبد الله :

86) -"علم البيان "،دار الهدى،عين مليلة ،الجزائر،بدون تاريخ

✍ شيخون ، سيد محمود:

87) -"الإيضاح في التمثيل البلاغي"، دار الكتاب الحديث، القاهرة، 2006

✍ ضيف، شوقي:

88) -"البلاغة تطور و تاريخ" ، دار المعارف، مصر ،1965

✍ طبانة، بدوي :

89) -"علم البيان"،دار الثقافة،بيروت،بدون تاريخ

90) -" قدامة بن جعفر والنقد الأدبي"،مكتبة الأنجلو المصرية،القاهرة،ط3: 1969

✍ طرفة بن العبد:

91) -"الديوان"،شرح: مهدي محمد ناصر الدين،دار الكتب العلمية،بيروت،ط3: 2002

✍ عبد التواب، صلاح الدين:

92) -"الصورة الأدبية في القرآن الكريم"،الشركة المصرية العالمية للنشر ،لونجمان،مصر،ط1: 1995

✍ عتر ، نور الدين:

93) -"في ظلال الحديث النبوي"، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2008

✍ عتيق ، عبد العزيز:

94) -"علم البديع"، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط1: 2006

95) -"في تاريخ البلاغة العربية ،دار النّهضة العربية، بيروت، بدون تاريخ.

96) -"علم البيان"، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط1: 2006

✍ عثمان ، عبد الفتاح:

97) -"التشبيه والكناية"، مكتبة الشباب، مصر، 1993

✍ عطية ، مختار:

98) -" علم البيان و بلاغة التشبيه"،دار الوفاء ،الإسكندرية، مصر، 2004

✍ غريب علام، عبد العاطي:

99) -"دراسات في البلاغة العربية"،منشورات جامعة قان يونس،بنغازي، ليبيا، ط1: 1997

100) -"البلاغة العربية بين الناقدين الخالدين عبد القاهر الجرجاني وابن سنان الخفّاجي"،دار الجيل،بيروت،ط1: 1993

✍ فيود، عبد الفتاح:

101) -" دراسات بلاغية" ،مؤسسة المختار،القاهرة، ط1 1998

✍ قدامة ابن جعفر، أبو الفرج (ت: 327هـ):

102) -"نقد الشعر"، تحقيق: محمد عبد المنعم خفّاجي ،دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ

103) -" نقد النثر"(منسوب)،نشر: طه حسين وعبد الحميد العبادي،المكتبة العلمية،بيروت 1980

✍ قطب، السيد:

104) -"التصوير الفني في القرآن"، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط16: 2002

✍ قيس بن الخطيم :

105) -"الديوان"، تحقيق: ناصر الدين الأسد ،دار صادر، بيروت، بدون تاريخ

✍ قيس بن الملوح :

106) -" الديوان" برواية أبي بكر الوالبي،تحقيق: يسري عبد الغني ،دار الكتب العلمية، بيروت،ط1: 1999

✍ كثيّر عزّة:

107) -"الديوان"،شرح: إحسان عباس،دار الثقافة،بيروت،1971

✍ مرعّي بن يوسف، الحنبلي(ت: 1033هـ):

108) -"القول البديع"،تحقيق:محمد بن علي الصّامل،دار كنوز إشبيليا،م.ع.السعودية،ط1: 2004

✍ مسلم ، ابن الحجاج القشيري النيسابوري (ت:261هـ):

109) -"صحيح مسلم"، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ

✍ مطلوب، أحمد:

110) -" معجم المصطلحات البلاغية و تطورها"، مكتبة لبنان، طبعة: 2000

111) -" عبد القاهر الجرجاني، بلاغته و نقده، وكالة المطبوعات ،الكويت، ط1 : 1973

112) -"البلاغة عند السكاكي"،مكتبة النهضة، بغداد، ط1: 1964

✍ هدارة ، محمد مصطفى:

113) -"علم البيان" ،دار العلوم العربية، بيروت، لبنان، ط1: 1989

✍ يوسف ، حسني عبد الجليل:

114) -"التصوير البياني بين القدماء والمحدثين"، دار الافاق العربية، القاهرة،بدون تاريخ

115) "ديوان الهذليين"،دار الكتب المصرية،القاهرة،ط2: 1995

فهرس

الملخّص:

يعتبر تشبيه التمثيل أبلغ أنواع التشبيه؛ وذلك لما في وجهه من التفصيل الذي يحتاج إلى إمعان فكر، وتدقيق نظر، وهو أعظم أثرا في المعاني، يرفع قدرها، ويضاعف قواها في تحريك النفوس لها...فلا عجب أن يكثر في القرآن والسنّة وكلام العرب كثرة لافتة؛ تدلّ على بلاغته وحسنه ورفعة شأنه...

وقد حفلت الدراسات القديمة بهذا الفنّ البديع لما تقدّم، وشُغِلَ البلاغيون ببيان حقيقته، ورسم حدوده، وإبراز أثره في المعاني والنفوس...واختلفت فيه المذاهب وتعددت.

ويعتبر عبد القاهر الجرجانيّ (ت:471هـ) أبرز من درسوا فنّ تشبيه التمثيل؛ حيث أسهم – بجهود جبّارة– في رسم حدوده، وبيان أُثره في المعاني والنفوس، وشرح أسباب تأثيره...وذلك في كتابيه الجليلين:" أسرار البلاغة" و" دلائل الإعجاز".

وتأتي هذه الدراسة لبيان أوّليّة هذا الفنّ البديع في الموروث العربيّ، وبيان حقيقته ومعناه، وأثره في بلاغة الكلام، والتعريف بالأعلام الذين أسهموا بجهودهم في رفع دعائمه، وتفصيل القول في جهود عبد القاهر خاصّةً.

الكلمات المفتاحية:

البيان؛ الصورة البيانية؛ الخيال؛ التخييل؛ النظم؛ توخّي معاني النحو؛ التشبيه؛ الاستعارة؛ التأثير في المتلقي؛ البلاغة.